التمهيد

قبل الدخول في هذا المبحث، ينبغي التعريف ببعض المصطلحات ، والمفاهيم التي تعرضت لها الدراسة ، والوقوف على معانيها ، وبيان ما بينها من تشابه أو اختلاف .

أولاً : تعريفات

تعريف القرآن الكريم :

لغـة :

" معنى القُرْآن معنى الجَمْع)،وسمي قرآناً لأنّه يجمع السُّوَر فيضُمُّها ، قَرَأْتُ الشَّيء قُرْآناً : جَمَعْتُه وضَمَمْتُ بعضه إلى بعض" [1].

والقُرْآن :القراءة ، ومنه في التنزيل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ [2] ﴾"[3].

اصطلاحاً :

هو اللفظ المنزل على سيدنا محمد ρ للإعجاز بسورة منه ، المتعبد بتلاوته[4] .

أو هو المنزل على الرسول ρ المكتوب في المصاحف ، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة ، والقرآن عند أهل الحق : هو العلم اللدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها[5] .

تعريف الحديث القدسي:

لغةً :

القُدْس : تنزيه الله وهو القُدُّوس والمُقَدِّس والمُتقدِّس[6] .

التَّقْدِيس : تنزيه الله عز وجل القُدُّوس : فعُّول من القُدْس ، وهو الطهارة .

القُدُّوس: من صفات الله تعالى ، وهو الطاهر المنزَّه عن العيوب والنقائص .

التَّقديس : التَّطهير والتَّبريك ، وتَقَدَّس : أي تطهر.

(القُدْس) بسكون الدال وضمها الطُّهْر اسمٌ ومصدر ، ومنه قيل للجنة حظيرة القُدْس .

(القُدُّوس): هو الله عز وجل . وروح القُدُس جبريل عليه السلام[7].

مما تقدَّم ، كلمة (قدس) في كل المعاجم تدور حول معنى تنزيه الله عز وجل عن العيوب ، ومعنى التبريك والتطهير ، إضافة إلى أن (القدوس) اسم من اسماء الله تعالى.

---

[1] ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، تحقيق: عامر أحمد حيدر ، مراجعة :عبد المنعم خليل إبراهيم ، بيروت،دار الكتب العلمية ، ط2، 2009م، (مادة قرأ)، مج1 ، ص157

[2] سورة القيامة ، الآية (18)

[3] إبراهيم أنيس وآخرون (قاموا بإخراج هذه الطبعة)، المعجم الوسيط ،القاهرة ،دار إحياء التراث العربي ، ط2، 1972، باب القاف، (مادة قرأ) ج2،ص722

[4] المناوي ، زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي ابن زين العابدين الحدادي ،الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ، وعليه النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية لمحمد منير الدمشقي الأزهري ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ،(د.ط) ، (د.ت)، ص2

[5] الجُرجَاني السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحُسيني الحنفي (ت 816هـ) ، التعريفات ، وضع حواشيه وفهارسه : محمد باسل عيون السود ، بيروت -لبنان ،منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العلمية ، ،ط3، 2009م ،ص175

[6] الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت 170هـ)، كتاب العين ، ترتيب و تحقيق. عبد الحميد هنداوي ،بيروت-لبنان ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية، ، ط1 ، 1424هـ-2003م ، باب القاف (مادة قدس) .، مج3، ص366

[7] ابن منظور ، مرجع سابق ، فصل القاف(مادة قدس)، ج 6، ص204،203.

قال الله تعالى على لسان ملائكته ﴿ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[1] أي نطهر أنفسنا لك.

اصطلاحاً :

هو ما كان لفظه من عند الرسول φ ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام[2].

أو هو ما يرويه صدر الرواة وبدر الثقات عليه أفضل الصلوات ، عن الله تبارك وتعالى ، تارة بواسطة جبرائيل عليه السلام ، وتارة بالوحي والإلهام والمنام ،مفوضاً إليه التعبير بأي عبارة شاء من أنواع الكلام[3].

وهو الذي قال الرسول φ حاكياً عن الله تعالى ،فهو كلام الله تعالى ، غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التي امتاز بها عن كل ما سواه[4] .

يُتوصل من هذه التعريفات إلى أن الحديث القدسي هو ما يضيفه النبي φ إلى الله تعالى ، أي أن النبي يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظٍ من عنده ، وإذا رواه أحد عن رسول الله مسنداً إلى الله عز وجل يقول: (قال رسول الله φ فيما يرويه عن ربه عز وجل . أو يقول : قال رسول الله φ : قال الله تعالى – أو يقول الله تعالى[5] .

تعريف الحديث النبوي :

الحديث **لغةً** تحدَّثُ به ويُنْقَلُ ، ومنه (حَدِيثُ) رسول الله φ[6].

والحديث نقيض القديم[7] ، أي الجديد.

اصطلاحاً حديث هو اسم من التحديث وهو الإخبار ، ثم سمي به قول أو فعل أو تقرير نُسِبَ إلى النبي φ ويُجمع على (أحاديث) على خلاف القياس . قال الفراء* : وأحد الأحاديث أحدوثة، ثم جعلوه جمعاً للحديث ، وفيه أنهم لم يقولوا أحدوثة النبي)[8].

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي :

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي نجملها في الآتي :-

---

[1] سورة البقرة ، الآية (30)

[2] الكفَوي،أبو البقاء أيوب بن موسى الحُسيني (ت 1094هـ-1683م) الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أعده للطبع ووضع فهارسه:عدنان درويش – ومحمد المصري ، بيروت-لبنان ، مؤسسة الرسالة ،ط2، 1419هـ-1998م،(فصل القاف) ، ص722

[3] المناوي ، الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ، مرجع سابق ، ص3

[4] الزرقاني، الشيخ محمد عبد العظيم ،مناهل العرفان في علوم القرآن،تحقيق: فواز أحمد زمَرلي،بيروت،دار الكتاب العربي ، ط1،1415هـ-1995م،ص45

[5] مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ، القاهرة، مكتبة وهبة ، ط6 ، ص20

[6] الفيومي،أحمد بن محمد بن علي المُقْرِي (ت770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تحقيق :عبد العظيم الشناوي، القاهرة ،دار المعارف ، ج1 ،كتاب الحاء(مادة حدث) ، ص124

[7] ابن منظور، مرجع سابق ، مج2، (مادة حدث)، ص147

* الفراء : هو أبو زكريا يحيى الفراء ، من أهل الكوفة ،كان إماماً ثقة ، له كتاب (المعاني) جمع به أصول النحو . ابن الأنباري ،نزهة الألباء في طبقات الأدباء ،: حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار الفكر العربي، د.ط، 1418هـ -1998م ، ص90-94.

[8] الكفَوي ، مرجع سابق ، (فصل الحاء) ، ص370

1- القرآن الكريم له خصائصه من الإعجاز والتعبَّد به ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك ، وليس للحديث القدسي والنبوي شيء من هذه الخصائص[1].

2- يحرم مسَّه للمُحْدِث وتلاوته للجُنُب وروايته عند الحنابلة ، وكراهة ذلك عند الشافعية .

3- تسمى الجملة منه آية وسورة .

4- يُعطى قارؤه بكل حرف عشرة حسنات .

5- لا تكون الصلاة إلا بالقرآن .

6- جاحد القرآن يُكفَّر بخلاف جاحد الحديث القدسي والنبوي .

7- لابد من أن يكون فيه جبريل عليه السلام واسطة بين النبي ρ وبين الله تعالى[2].

أمَّا الحديث القدسي فليس فيه الخصائص المذكورة آنفاً وإنما يتفقان في كونهما وحياً منزلاً من عند الله تعالى ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[3].

الفرق بين الحديث النبوي والحديث القدسي :

1- الحديث القدسي ينسبه النبي ρ إلى الله تعالى ، فيقول فيه " قال الله تعالى كذا" ، بخلاف الحديث النبوي ، فلا يذكر فيه ذلك اللفظ .

2-الأحاديث القدسية أغلبها يتعلق بموضوعات الخوف والرجاء ، وكلام الرب جل وعلا مع مخلوقاته. وقليل منها يتعرض للأحكام التكليفية كأحكام الصلاة والصيام والحج والجهاد ، وغير ذلك[4].

3- الأحاديث القدسية قليلة بالنسبة لمجموع الأحاديث النبوية .

ثانياً : مفهوم الفصاحة والبلاغة

قبل الحديث عن فصاحة وبلاغة النبي ρ ينبغي الوقوف على معنى كلمتي الفصاحة والبلاغة وإيراد آراء بعض العلماء في الفرق بينهما .

---

[1] الزرقاني ، مرجع سابق ، ص45

[2] المناوي ، الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ، مرجع سابق ،ص2،3

[3] سورة النجم ، الآية (14) .

[4] الشيخ مصطفى بن العدوي، الصحيح المسند من الأحاديث القدسية، مصر ، دار الصحابة للتراث، ط1 ،1989م ، ص5

مرالبلاغة: بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري ، ومَبْلَغ الشيء مُنْتَهَاه، والمبالغة في الشيء الإنتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. ويقال بلغ الرجُل بلاغةً إذا صار بليغاً . ويقال أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه . والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلِّم .

أما الفصاحة : فهي من قولهم أفصح فلانٌ عمَّا في نفسه إذا أظهره . والشاهد (على أنها هي الإظهار) قول العرب أفصح الصبحُ إذا أضاء ، وأفصح اللبنُ إذا انجلت عنه رغوته فظهر وفصح أيضاً وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين وفصح اللحان إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ[1].

الفرق بين الفصاحة والبلاغة :

نشأ خلاف بين علماء البلاغة حول مفهوم الفصاحة والبلاغة ، فمنهم من جعل الفصاحة مختصة باللفظ والبلاغة مختصة بالمعنى ، ومنهم من يرى أن الفصاحة والبلاغة كلمتان مترادفتان ولا فرق بينهما .

قال بعض العلماء في الفرق بين الفصاحة والبلاغة : "إن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ ؛ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى" [2].

ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ والبلاغة تتناول المعنى ، أن البيغاء يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً ، إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه[3].

وفنَّد هذا القول الجرجانيؒ ردَّهُ في كتابه دلائل الإعجاز حيث بيَّن أن الفصاحة لا تقتصر على الألفاظ بل هي في المعاني كذلك فقال :

داًوهقولتجدُهلأنهاللفظةُفصيحةٌإلاَّوهويعتبرُمكانَهامنَالنظموحسنَمُلائمةِ لمعنىجاراتِهاوفضلَمؤانَستهالأخواتهاوهل قالوا: لفظةٌ متمكَّنةٌ ومقبولةٌ وفي خلافه : قلقةٌ ونابيةٌ ومستكرهةٌ إلاهم أن يُعبروا بالتمكُّن عن حسنِ الاتفاقِ بينَ هذه وتلك من جهةِ معناهُ وبالقلقِ والنبْوِ عنْ سوّء التلاؤم. وأنَّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في مَعناها وأن السابقَةَ لم تصلُحْ أن تكونَ لِفقاً للتالية في مُؤدَّاها، وهل تشكُّ إذا فكرتَ في قوله﴿ وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي

[1] العسكري ،أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر ، تحقيق وضبط : مفيد قمحة ، بيروت ، لبنان ،دار الكتب العلمية ، ط2 ، 1409هـ - 1989م، ص 15-16

[2] نفس المرجع السابق ، ص 17

[3] نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة

هوَّ : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرجاني النحوي ،كان من كبار أئمة العربية والبيان ، صنف كتباً كثيرة منها: المغني في شرح الإيضاح ، والمقتصد في شرحه ، وإعجاز القرآن الكبير والصغير ، وغيرها، توفى سنة 471 هـ أو 474 هـ. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ، بغية الوعاة في طبقات النحويين والقراء ، ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط1، 1419هـ- 1998م ، مج2، ص 106

ماءَكِ ويا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، فتجلّى لك منها الإعجاز الذي ترى وتسمع! أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة والفضل البيّن إلا لأن الأمر في ذلك يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف حتى تلاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها وأنّ الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها، إن شككت فتأمل! هل ترى لفظةً منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأُفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية قُل: " ابلعي" بدلها وحدها ولمحة غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشكّ في ذلك وأنت ترى عياناً أنّ الفظامة أفي أن ذُوديت الأرض ثم أُمرت ثم في أن كان النداء بـ " يا أيتها الأرض " . ثم إضافةُ الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعي الماء ثم أن بعّد نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها ونداءُ السماء وأمرُها كذلك بما يخصها؟ ثم أن قيل : وغيض الماءُ . فجاء الفعل على صيغة " فُعِل " الدالّة على أنه لم يَغِض إلاّ بأمرٍ آمرٍ وقدرةِ قادر."[2]

وقال بن سنان الخفاجي[1]*"إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني ، لا يقال في كلمة واحدة إنها على معنى يُفضل عند مثلها : بليغة ، وإن قيل فيها : فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً "[3].

وأيّد هذا الرأي ابن الأثير[2]*، فهو يرى أن الفصاحة شرطٌ في البلاغة لا تتم إلا به، لذلك وجب أن تعم البلاغة اللفظ والمعنى معاً ، أما الفصاحة فليست كذلك ؛ لأنها محض إبانه ووضوح فقط ، وذلك يتعلق باللفظ .

وذكر أوصافاً ثلاثة للبلاغة لا يسمى الكلام بليغاً إلا بمجموعها . ومتى عُرّي من واحد منها فليس ببليغ . فالأول منها يتعلق بالمعنى ، وهو الإفادة . والثاني يتعلق باللفظ والمعنى كليهما ،

---

[1] سورة هود ، الآية 44

[2] الجرجاني ،أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز ، قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر ،القاهرة، مطبعة المدني،ط3، 1413هـ-1992م، ص ص 44-46 .

[1]* ابن سنان الخفاجي (423-466هـ ، 1032-1073م) :هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان ، أبو محمد الخفاجي الحلبي . شاعر ، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره ،كانت له ولاية بقلعة عزاز من أعمال حلب ، مات مسموماً .له ديوان شعر مطبوع ، وصنّف كتاب سر الفصاحة.كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء (من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م)، بيروت-لبنان، منشورات علي بيضون ،دار الكتب العلمية ، ط1، 2003م،باب العين، ج3 ، ص285

[3] الخفاجي، أبو محمد بن عبد الله بن سعيد بن سنان الحلبي (ت 266 هـ) ، سر الفصاحة ، اعتنى به وخرج شعره وعمل فهارسه : داؤد غطاشة الشوابكة، عمان ، الأردن ، دار الفكر ، ط1، 2006م-1427هـ ، ص53 .

[2]* هو : نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الوزير الفاضل ضياء الدين أبو الفتح الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير. مولده بجزيرة ابن عمر ، سنة 558هـ مهر في النحو واللغة وعلم البيان ، واستكثر من حفظ الشعر ، مات ببغداد سنة 637هـ ، له عدة مصنفات أشهرها كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، وكتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء ، وديوان رسائل في عدة أجزاء . السيوطي ،بغية الوعاة في طبقات النحويين والقراء ، مرجع سابق ، ص 315.

وهو أن يكون اللفظ غير زائد على المعنى. والثالث يتعلق باللفظ وهو الفصاحة ، لأن الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتى يكون فصيحاً [1].

وقد يجوز أن يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ ، جيد السبك، غير مستكره فج ولا متكلَّف وخم ، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف[2].

وقد انتهى أبو هلال العسكري*من خلال وقوفه على تعريف الفصاحة والبلاغة إلى أنهما ترجعان إلى معنى واحد فقال :

"وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له".

وقد وضع البلاغيون حداً للبلاغة فقالوا :"إن البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ، وهذا شرط في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثَّة ومعرضه قلقاً لم يسم بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى ... وذكروا بأن هناك كلام معناه مفهوم ومغزاه معلوم وليس ببليغ[3] ".

وترى الباحثة بعد استعراضها لآراء العلماء واختلافهم في قضية اللفظ والمعنى أنه أياً كان هذا الاختلاف فحديث الرسول ρ بلغ ذروة البلاغة بحدودها التي يراها البلاغيون بل تخطى حدودها ، وفاقت فصاحته شروط الفصاحة وتربع على عرشها دون منافس ، فبلغ بهما عنان السماء.

والفصاحة والبلاغة في حديثه ρ متلازمتان ، فما ذُكِرت الفصاحة في محلٍ إلا لمع نجم البلاغة فيه ، وما أتت البلاغة في موضع إلا زاحمتها الفصاحة فيه ، فهما معاً كالكيان الواحد .

---

[1] ابن الأثير ، ضياء الدين الجزري ،الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ،حققه وعلق عليه :مصطفى جواد ، وجميل سعيد ، بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، (د.ط) ،1956-1375هـ ، ص81.

[2] أبو هلال العسكري ، مرجع سابق ، ص 17

* هو: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران أبو هلال العسكري ، تلميذ أبي أحمد العسكري ،كان موصوفاً بالعلم والفقه، والغالب عليه الأدب والشعر ، له من التصانيف :كتاب صناعتي النظم والنثر، التلخيص في اللغة ، جمهرة الأمثال، شرح الحماسة ،.. وغيرها ، وله ديوان شعر ، توفى سنة 395هـ. السيوطي ، بغية الوعاة 1 /506 .

[3] أبو هلال العسكري ، مرجع سابق ، ص 16 ،19 .

الفصل الأول

الخصائص البلاغية للحديث النبوي الشريف

- **المبحث الأول : فصاحة وبلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم**
- **المبحث الثاني : المعاني في الحديث النبوي الشريف**
- **المبحث الثالث : خصائص أسلوب الحديث النبوي الشريف**
- **المبحث الرابع: التعبير وطرق الأداء في الحديث النبوي الشريف**

المبحث الأول

فصاحة وبلاغة النبي φ

أسباب بلاغة الرسول φ:

إذا أُريد معرفة المؤثرات الأدبية لأديب ما ، فلا بد من معرفة حياته ومجتمعه وبيئته التي عاش ونشأ فيها ، لأن ذلك يُعد من إحدى مصادر إلهامه ، وعوامل تكوينه الأدبي[1].

وترجع عوامل التكوين الأدبي للنبي φ إلى عدة عوامل منها :-

أولاً : ميراثه الفصاحة والبلاغة من أجداده :

اختار الله النبي φ ليكون من بني هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي، فكل هؤلاء الأجداد قد توارثوا البلاغة بجانب السيادة والزعامة في قومهم . وكانت الرئاسة القبلية في الجزيرة العربية بعامة ومكة بخاصة ترتكز على عوامل بارزة ، أهمها الشجاعة والكرم والفصاحة والبيان ، فكانت كل هذه العناصر مجتمعة في أسرة النبي φ منذ أيام جده (كعب بن لؤي) الذي كانت زعامته مشهورة في ذلك الوقت ، فكان الناس يأتمرون بأمره ويقدمون له فروض الولاء والطاعة . ثم تلاه أولاده وأحفاده وهم يتوارثون الزعامة كابراً عن كابر وصولاً إلى جد الرسول φ عبد المطلب[2] .

ثانياً : الميلاد والنشأة

ولد الرسول φ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل[3] .

أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة) ... بن عدنان .... وينتهي نسبه إلى إبراهيم عليه السلام[4].

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر . فرسول الله أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قِبَل أبيه وأمه[5].

توفي عنه والده وهو ما يزال جنيناً في بطن أمه . وقد قيل أن أم النبي φ وسلم عندما حملت به رأت من الكرامات ما رأت ، منها : أنقيل لها إنك قد حملت بسيّد هذه الأمة ، فإذا وقع على الأرض فقولي " أُعيذه بالواحد شرمنّ كل حاسد ، ثم سمّيه محمداً . ورأت حين حملت به أنه خرج منها نورٌ رأتْ به قصور بُصْرى ، من أرض الشام .

---

[1] محمد رجب بيومي ، البلاغة النبوية ، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ، ط1 ، 1429هـ-2008م ، ص57

[2] نفس المرجع السابق، ص58،59

[3] صفي الرحمن المبارك فوري ، الرحيق المختوم ، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، بيروت، دار إحياء التراث ، د.ط ، د.ت ، ص 45

[4] نفس المرجع السابق ، ص 39

[5] السُهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (508-581هـ)، الروض الأُنُف، في شرح السيرة النبوية ، لابن هشام ،تحقيق وتعليق وشرح عبد الرحمن الوكيل ، القاهرة ، دار الكتب الإسلامية ، ط1 ، 1387هـ-1967م ، ج 2 ،ص6

كما أنها لم تجد في حملها به φ ما تجده الحوامل من ولا وحم ، ولا غير ذلك، ولما وضعته وقع على الأرض مقبوضة أصابع يديه ، مشيراً بالسبابة كالمسبح ، وأسماه جده بمحمد ، فقيل له لماذا سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

بعد ميلاده φ التمس له جده عبد المطلب الرضعاء ، وقد كان القرشيون وغيرهم من أشراف العرب يدفعون بأولادهم إلى المراضع ، لينشأ أطفالهم في الأعراب ، فيكون ذلك أفصح للسانهم ، وأجلد لجسمهم وليكتسبوا عادات البادية ، ولغتها الخالصة [6].

فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر ، يقال لها حليمة ابنة أبي ذؤيب، فاحتضنت الرسول الكريم وأرضعته ، فما إن شرب من ثدييها إلا وقد امتلأ لبناً فشرب (هو وأخوه من الرضاعة) ، ورأت بركة الرضيع تظهر في كل ما حولها ، وقد قال لها صاحبها حينها " تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، فقالت : والله إني لأرجو ذلك ، فخرجت وحملت معها رسول الله φ فإذا بها الهزيلة فقويت ، وبعد أن عادت به إلى بلادها التي عُرِفت بالجدب ، اخضرت واعشوشبت، وشبعت أغنامها فحلبت وشربت ، وقد لاحظ ذلك عشيرتها، فكانوا يستغربون هذا الخير الذي شملهم ببركة هذا الرضيع[7] .

وبقي النبي φ عند مرضعته حليمة السعدية في بني سعد حتى وقعت حادثة (شق الصدر)[8] فخشيت عليه وردته إلى أمه آمنة بنت وهب ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين .

توفيت آمنة بنت وهب والرسولφ ابن ست سنوات في طريق عودتهما من زيارة لقبر والده عبد الله بالمدينة، حيث لاحقها المرض في الطريق، فماتت بالأبواء، وهو مكان بين مكة والمدينة.

ثم عاد به جده عبد المطلب إلى مكة ، فكان يحبه ويؤثره على أولاده . ثم توفى عبد المطلب والنبي φ في الثامنة من عمره ، ليتولى رعايته عمه أبو طالب ويضمه إلى ولده ، فقدَّمه على أولاده ، وظلَّ فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته ويصادق ويخاصم من أجله[9].

كان لفترة الرضاع التي قضاها النبي φ في بادية بني سعد فائدة كبيرة له ، فنشأ في هذه البادية ذات الطبيعة القاسية والحياة الصعبة ، وتربى على شظف العيش فيها ، فاكتسب بذلك قوة بدنية ، وذهناً صافياً وأفقاً رحباً ، وتكلَّم بلغتهم العربية الخالصة التي لم تختلط باللهجات الأخرى ، فتعلم الفصاحة في بني سعد ، وتعلّم أيضاً في هذه البيئة القاسية الشجاعة والجرأة لما فيها من هوام الأرض التي يتصدى لها الرجال فتصبح حديث المجالس، وتربى على التعاون بين الناس في مجابهة قساوة

---

[6] نفس المرجع السابق، ج2،ص ص137 ، 150،151،167.

[7] نفس المرجع السابق،ج2، ص144،146

[8] أنظر القصة كاملة ، نفس المرجع السابق ،ج2، ص ص168- 170

[9] صفي الرحمن المباكفوري ، مرجع سابق (بتصرّف) ، ص48

الحياة ، وتربى على الحرية والاستقلال عن أهله وأمه وأقربائه ، فأكسبه ذلك جواً من الحرية ، فنشأ مستقلاً في التفكير، صاحب ذهنٍ صافٍ وعقلٍ راجح[10].

كما أن يتمه ونشأته الجادة الحزينة جعلته يفكر تفكير الرجل المحنَّك منذ شبابه، فانصرف عن دواعي اللهو والطرب إلى التأمل في ألغاز الكون .

يقول الرافعي* ملخصاً نشأة الرسول φ اللغوية وأسباب فصاحته :

"إن النشأة اللغوية للرسول الكريم φ واكتسابه المنطق واللغة كان أحد أسبابها تقلبه في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً ، وأعذبها بياناً ، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني سعد بن بكر ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، ولم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولذا قال: (أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش[11])"[12].

ثالثاً : الفطرة والإعداد الرباني

جمع النبي φ في نشأته خير مافي طبقات الناس من ميزات ، فكان صاحب فكر صائب، ونظر سديد ، ونال حسن الفطنة ، وأصالة الفكرة ، وتدبر الحق ، فعرف أحوال الناس والجماعات وجميع شؤون الحياة ، وعاف الخرافات ونأى عنها ، وعاشر الناس وعرف طبائعهم ببصيرته الفذَّة وفطرته السليمة ، فما وجده حسناً عند قومه شاركهم فيه ، وما وجده سيئاً تركه ، فكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذُبِح على النصب ، ولايحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً ، وكان ينفر من كل هذه المعبودات الباطلة بطبعه ، ويبغضها من كل قلبه[13].

وقد أعدَّه الله وتعهَّده منذ طفولته لحمل رسالته عندما شقَّ صدره وأخرج العلقة منه تطهيراً له من حالات الصبا اللاهية المستهترة إلى صفة الجد والحزم والرجولة الصادقة ، وحتى لا يكون في قلبه شيء إلا التوحيد[14].

وقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله φ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغِلْمَان، فأخذه فصَرَعه فَشَقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب فاستخرج منه عَلَقَةً سوداء، فقال: هذا حَظّ الشيطان منك، ثم غَسَلَهُ فى طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ ، ثم أعَادَهُ في مكانهِ ، وجاء الغلمان

---

[10] محمد عبد القادر أبو فارس،السيرة النبوية-دراسة تحليلية ،عمان، الأردن،دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ط1، 1418هـ–1997م،ص106

* الرافعي (1298 - 1356 هـ = 1881 - 1937 م)هو :مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي:عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، ومولده في بهتيم (بمنزل والد أمه) ووفاته في طنطا (بمصر) أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. شعره نقي الديباجة، على جفاف في أكثره. ونثره من الطراز الأول .له عدد من المؤلفات منها (ديوان شعر - ط) ثلاثة أجزاء، و (تاريخ آداب العرب - ط) و(عجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط) و (وحي القلم - ط) وغيرها..). الزركلي، خير الدين ،الأعلام ،قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، بيروت-لبنان ، دار العلم للملايين ، ط15 ، 2002م ، ج7 ، ص235

[11] ابن الأثير ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ،النهاية في غريب الحديث والأثر، أشرف عليه وقدّم له: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري ، الدمام ، السعودية ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1421هـ ، حرف الباء ، ج1، ص97

[12] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، بيروت ، دار الكتاب العربي، د.ط ، 1425هـ- 2005م، ص196

[13] صفي الرحمن المبار كفوري، ، مرجع سابق ،ص 53

[14] محمد عبد القادر أبو فارس ، مرجع سابق ، ص106،107

يَسْعُونَ إلى أُمِّهِ (يعني أثر ذلك المِخْيَطِ "الإبرة" فى صَدْرِهِ)[15]. وحادثة شق الصدر هذه حدثت عندما كان النبي φ في ديار بني سعد وكان عمره حينها في الرابعة أو الخامسة [16].

وقد عصمه الله تعالى من جميع مظاهر الإنحراف وعن كل مالا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأها له .

وكانت عندما تتحرك في النبي φ نوازع النفس البشرية لبعض المتع الدنيوية أو اتباع طريق غير محمود تتدخل العناية الالهية فتعصمه من ذلك . فقد روى أن رسول الله φ قال: (ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة فجلست أسمع، فضرب الله على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة، فأصابنى مثل أول ليلة، ثم ما هممت بسوء) [17].

فإشاحة النبي φ عن أماكن اللهو والريب ، وعدم ترحيبه بشعر الجاهلية في الحروب والخطب والحماسة والغزل والهجاء ، وبخطبها في الثأر والاعتزاز بالعصبية ، كل هذا لا يخرج من إنسان خواء لا يفكر بشيء ، بل لابد وراءه من نفس عالية ، ومنازع رفيعة هيأها الله له لحمل رسالة السماء[18].

رابعاً :علم النبي φ بالقرآن :

كانت آيات القرآن التي بدأت تتوالى الإجابة الشافية لكل ما يجيش في صدر النبي φ من خواطر ، حيث كان النبي φ في تدبر مستمر لآيات الكون ، كدورات الليل والنهار، وارتفاع السماء وانبساط الأرض ، وتفجير الأنهار ، وإرسال الرياح ، ونهوض الجبال ، وإجراء الرزق ، وبدء الخلق ، وغيرها من المظاهر الكونية ، فيتساءل متلهفاً : أتمَّ ذلك بدون مبدع ؟ أقام به الأصنام الصم ؟ فتأتي الإجابة من الله عزَّ وجلَّ دقيقة صريحة بمثل قوله تعالى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

---

[15] النيسابوري ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القُشيري (206-261هـ) ، صحيح مسلم ، المسمى المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله φ اعتنى به : أبو قتيبة نظر محمد الفَارِيَابي ، الرياض ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1427هـ - 2006م . كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله إلى السموات وفرض الصلوات ، حديث رقم (261)، مج1،ص87 .

[16] صفي الرحمن المبارك فوري ، مرجع سابق ، ص47 .

[17] اختلفوا في صحة هذا الحديث ، فصححه الحاكم والذهبي ، وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية 287/2 يرُاجع صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص 53

[18] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ، ص67

خَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64) قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)﴾[19].

وهكذا فتح الرسول φ عينيه على هذا الليل نُزِّل من أرفع سموات ، فإذا به ينقذه من حيرته ، ويجيبه عن كل اسئلته ، ويؤيد وجهة نظره في الحياة والأشياء ، فقد كان سيدنا محمد φ ينأى عن الأصنام ، فينزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام ، وكان يشيح عن العصبية الحمقاء والتعالي ، فينزل بيان السماء مبيناً أن الناس من أصل واحد ، من ذكر وأنثى، وغير ذلك الكثير من الأمور والعادات التي كانت تشيع في مجتمع الجاهلية وكانت تبعث الحيرة في نفس النبي φ ، فكان القرآن الكريم يجيبه عليها [20].

إن الحيرة التي ألمَّت بنفس الرسول φ قبل البعثة كانت سبباً في استعداده لتلقي تعاليم القرآن الكريم ، الذي يعتبر الأستاذ المرشد الحكيم لسيدنا محمد φ ، فكان يجيب عن كل سؤال يدور في خلده ، ويرشده إلى الطريق الأمثل ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (49)﴾[21].

فالقرآن الكريم ملأ حياة الرسول φ وشغل عقله وقلبه ، وأورثه الحكمة ، والحجة والبيان ، فقد قال له أبو بكر الصديق : لقد طفت في قبائل العرب ، فما وجدت أفصح منك، فمن أدبك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[23]. فالفصاحة عنده فصاحة العاقل المكين الذي أرشده القرآن ، وأفرغ عليه آلاف المعاني ، وفتح أمامه أبواب الإقناع والسداد ، فإذا تكلَّم ، فعن رصيد ضخم من التفكير الثاقب والمعرفة الغزيرة ، والدراية الكونية والتاريخية والفقهية ، مما بسطه محكم الذكر الحميد .

فمعاني النبي في إرشاداتها ربانية ، وكانت ألفاظه معرضاً رائعاً لمعانيه ، وإذا كان القرآن أستاذ معانيه ، فإن أثره عليه عظيم جليل[24] .

مظاهر فصاحة وبلاغة الرسول φ وصفته

تعد بلاغة النبي φ من أبرز مظاهر عظمته ، وأجلى دلائل نبؤته ، فهو صاحب اللسان المبين والمنطق المستقيم ، والحكمة البالغة والكلمة الصادقة، والمعجزة الخالدة ، وصفت بلاغته

---

[19] سورة النمل ، الآيات (59-65)

[20] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ،ص 69

[21] سورة العنكبوت ، الآيتان (48-49)

[22] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ، ص69

[23] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني (ت 728هـ)،مجموع الفتاوى ، المدينة النبوية-المملكة العربية السعودية ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، د.ط، 1416هـ-1995م ، ج18، ص375.(قال ابن تيمية : المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت)

[24] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ، ص 73 ،74

بأعذب العبارات وأُثني عليه غاية الثناء ، فقد وصفته أم معبد*وصفاً شاملاً لخلقه وأخلاقه ، منطقه وفصاحته ، وبلاغته وأسلوبه ، وصفاً غايةً في الدقة وآيةً في الجمال، يجعل السامع أو القارئ يرسم لوحةً فنية رائعة في خياله تجسد شخصية النبي الكريم، ولكن يظل الخيال محدوداً ، فطوبى لمن شَهِدَ زمانه ، ورآه ، ونَعِمَ بصحبته φ.

قَالَتْ أُمّ مَعْبَد:"ظَهَرَ لِي مِنْ وَصْفِ النَّبِيِّ φ هَذَا أَبْلَجُ الْوَجْهِ لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ وَسِيمٌ فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ فِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ أَكْحَلُ أَزَجُّ أَقْرَنُ إِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ وَأَجْمَلُهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلٌ لَا نَزْرٌ وَلَا هَذَرٌ كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ أَزَجُّ أَقْرَنُ لَهُ عَثَانِينُ فِي لِحْيَتِهِ أَسْوَدُ غَيْرَانُ وَفِي رَأْسِهِ وَفْرَةٌ إِنْ سَكَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَأَبْهَاهُ أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَجُهُ مِنْ بَعِيدٍ وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلٌ لَا نَزْرٌ وَلَا هَذَرٌ كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ رَبْعَةٌ لَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا. لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ إِنْ قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ. وَإِنْ أَمَرَ بَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ. لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ 25 "26.

أما الجاحظ* فقد وصف كلام الرسول φ وبلاغته في كلمات موجزة دقيقة الوصف والتعبير بقوله:"وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف...، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم يَنْطِق إلا عن ميراث ، بمحض حكمة ، ولم يتكلَّم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالقبول، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبَّة ، وغشَّاه بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام وقلَّة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلَّت به قَدَم، ولا بَارَتْ له حُجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبذُّ الخُطَبَ الطِوال بالكلِم القِصار، ولا يَلْتَمِس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْجَ إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا

---

* هي :أم معبد بنت خالد الخزاعية الكعبية، واسمها عاتكة وهي أخت حبيشة التي نزل عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هاجر إلى والمدينة فمرَّ بخيمتها من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ .ابن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق: علي محمد معوض ،- عادل أحمد عبد الموجود ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،ط1، 1415هـ - 1994 م ، مج7، ص 386

25 قولها(لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ) أي لم تُعظِّم بطن مع استرخاء أسفله (وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ) أي صغر الرأس (وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ) أي طول الشعر (وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ) أي شبه البُحَّ (وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ أَزَجُّ أَقْرَنُ) أي مقترنُ الحاجبين من غير اتصال (إِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ وَإِنْ تَكَلَّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ) من الحسن، الجلال والعظمة (لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ) ليس بقليل فيدل على عِيّ ولا كثير فاسد (كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ) أي كلامه بعْدَةٌ) وسطٌ بين الطول والقصر (لَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ) أي لا تزدريه لقصره فتحتقره (وَلَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ) أي لا يبغضه لطوله (غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا) (وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا) أي أنه قائمٌ بأمر قومه (لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ إِنْ قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ. وَإِنْ أَمَرَ بَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ) (مَحْفُودٌ) أي مخدوم (مَحْشُودٌ) الذي يسرع الناس نحوه(وَلَا مُفَنَّدٌ) المنسوب إلى الجهل وقلة العقل، المُفَنِّد أي لا فائدة في كلامه لكبر أصابه .

26 النّيسابُوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم ، المستدرك على الصحيحين، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،ط2، 1422هـ-2002م. كتاب الهجرة ، باب حديث أم معبد في الهجرة، حديث رقم (18/4274) ، ج3،ص10 ،11 . والحديث عن هشام بن حبيش بن خويلد .(حديث صحيح الإسناد).

* الجاحظ : هو عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ . كان إماماً في العربية واللغة والأدب ، ولد سنة 163هـ بالبصرة ، له تصانيف عديدة منها : كتاب الحيوان، والبيان والتبيين ، والبخلاء ، وغيرها، توفى بالبصرة سنة 255هـ. إميل بديع يعقوب ، المعجم المفصّل في اللغويين العرب، بيروت، دار الكتب العلمية ، ط1، 1418-1997م، ج1 ، ص509.

يستعمل المواربَة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُطيل ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمَع الناسُ كلامٍ قطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصدَ لفظاً ولا أعدلَ وزناً ولا أجملَ مذهباً ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنىً، ولا أبين في فحوى، من كلامه φ "[27] .

" كان φ في فصاحة اللسانوبلاغة القول بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبعٍ وبراعة مَنْزَع، وإيجاز مَقْطع، ونَصاعة لفظ وجزالة قول، وصحة معانٍ وقلة تكلّف، أُوتِيَ جوامِعَ الكَلِمِ، وخُصَّ ببدائع الحِكَم، وعُلِّم ألسنةَ العرب..."[28].

بلاغته هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها وحسرت العقول دون غاياتها، وألفاظه ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهي محكمة الفصول[29] .

أما فصاحته فقد فاقت إمكانات وقدرات العرب الذين عرفوا بالفصاحة ، فكان كلامهم مهما بلغ مقدار الجودةوالحذق لا يسلم من عيوب الاستكراه والذلل والاضطراب والتكلُّف والصنعة ، أو من حذفٍ في موضع إطناب أو إطنابٍ في موضع حذف ، أو من كلمة غيرها أليق بها . وهم في باب المعاني ليس لهم إلا حكمة التجربة والأخذ عن بعضهم .

بيد أن الرسول φ كان أفصح العرب ، فلا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه ، سريع البديهة، حاضر الذهن لا تستزله الفُجاءة في الكلام ، ولا يجاوز مقدار المعنى الذي يريده ، وكانت معانيه إلهام النبوة ونتاج الحكمة وغاية العقل[30].

إحكام منطقه φ

كان لطبيعة خلقه وتكوينه - φ- دور مُهمٌ في طريقة نطقه وأداءه للحديث ، فعن الحسن بن علي – رضي الله عنهما -قال : سألت هندَ بن أبي هالة[31]، عن حلية رسول الله φ وكان وصّافاً ، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلقُ به ... قلت: صف لي منطقه ، قال : " كان رسول الله

---

[27] الجاحظ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر (150-255هـ) ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، القاهرة ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ، ط7 ،1418هـ-1998م ، ج 2 ، ص 17،18.

[28] القاضي عياض بن موسى اليَحْصُبي (471-544هـ) ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى φ ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبده علي كوشك، دبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم –وحدة الدراسات الإسلامية، ، ط1 ، 1434 هـ -2013م ، ص 115، 116

[29] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مرجع سابق، ص 193.

[30] نفس المرجع السابق، ص 194

[31] هند ابن أبي هالة هو ابن السيدة خديجة رضي الله عنها من زوجها الأول .

صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[32] ويتكلَّم بجوامع الكلم[33] فضلاً لا فضول فيه ولا تقصير[34] دمِثاً ليس بالجافي ولا المهين[35] يُعظِّم النعمة وإن دقَّت لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ذوَّاقاً[36] ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه إذا تعوضَّ للحق بشيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجَّب قلبها وإذا تحدَّث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحتَه اليسري ، وإذا غضِب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غضَّ طَرْفه ، جُل ضحكه التبسم، ويَفتر عن مثل حبِّ الغمام "[37].

فكونه - عليه الصلاة والسلام - ضليع الفم ، ويفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، وأنه يستعمل جميع فمه إذا تكلَّم ولا يقتصر على تحريك الشفتين فقط ، فهذا مما كانت تتفاخر به العرب؛ لأن طبيعة لغتهم ومخارج حروفها تقتضي مثل هذا الوصف وبه ويبلغ تمامها[38].

وقد نهى الرسول ρ عن التكلُّف في الكلام وعاب التشدُّق فيه ، لأن الكلام لا يجري على الطبيعة وإنما يكون على سبيل التكلّف والمبالغة التي تأباها طبيعة اللغة العربية ، فتنفي عنها طبيعة اللين والعذوبة وتؤدي إلى استكراه الصوت، وهذه من الصفات التي تعتبرها العرب من عيوب المنطق كالتمتمة والفأفأة (والتنطع والتمطق والتفيهق)[39] وغيرها..) [40].

كان ρ خالياً مما ذُكِر من عيوب المنطق ، هذا بالإضافة إلى أنه وُصِف بحُسنِ الصوت ، فعن قتادة قال: (ما بعث الله نبيًّا إلا حَسَنَ الصوتِ ، وكان نبيُّكم حَسَنَ الوجهِ ، حَسَنَ الصوتِ ، وكان لا يُرَجِّع)[41].

وحُسْنُ الصوتِ من تمام حسن المنطق ، وحليته ، واللغة تَجْمُل به ؛ لما فيها من معاني الأوضاع الموسيقية في خفة الوزن ، وصحة الاعتدال ، وتمام التساوي ، وحسن الملاءمة ، فلا جرم إن كان منطق النبي ρ على أتم ما يتفق وطبيعة اللغة العربية وإتقان أداءها ، لفظٌ مشبعٌ ،

---

[32] أي يستعمل جميع فمه للتكلم ، ولا يقتصر على تحريك الشفتين ، وذلك من قوة المنطق والصوت والمعنى وحضور الذهن.

[33] هي التي تجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة مع حكمة وسمو وبلاغة .

[34] أي قولاً فصلاً يصيب به مقطع المعنى ، لا حشو فيه فيزيد ولا تقصير فيقل .

[35] الدماثة : سهولة الخلق . والجفاء : غلظة

[36] هو ما يتذوق من الطعام

[37] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،مرجع سابق ، ص198 و199. وانظر: الترمزي، أبو عيسى محمد بن سَوْرَة ، الشمائل المحمدية، بيروت- دار إحياء التراث العربي ، د.ط، د.ت ،باب كيف كان كلام رسول الله ρ، حديث رقم(215) ،ص135 .(مع اختلاف بسيط في الرواية التي أوردها الرافعي).

[38] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص202

[39] تفيهق : تحدث من أقصى حنجرته - التمطق : هو ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الغار الأعلى للفم – التنطع : رمي اللسان إلى نطع الفم: أي الغار الأعلى ، وهو كالتمطق ؛ إلا أن هذا أبلغ منه وأوسع .

[40] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،مرجع سابق ، ص202

[41] الترمزي ، الشمائل المحمدية،مرجع سابق ، باب ماجاء في قراءة رسول الله ρ، حديث رقم (303) ، ص183 .

ولسانٌ بليل ، وتجويدٌ فخم، ومنطقٌ عذب ، وفصاحةٌ متأدية ، ونظمٌ متساوق ، وطبع يجمع ذلك كله[42].

وقد قالت السيدة عائشة – رضي الله عنها – "ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام يفصل ، يحفظه من جلس إليه"[43]. وفي رواية أخرى (إنما كان عيشه كعيشهم وإن كان يتحدث حديثا لو عده العاد أحصاه)[44][45].

أثر الحديث النبوي في اللغة والأدب

تمهيد:

قبل الحديث عن أثر الحديث النبوي الشريف في اللغة والأدب ، لا بد من الوقوف على معرفة أثر القرآن الكريم فيهما .

كان للقرآن الكريم أثرٌ واضحٌ في اللغة والأدب ، كيف لا وهو معجزة العرب في لغتهم فلم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله ، لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب .

---

[42] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص203

[43] الترمزي، محمد بن عيسى بن سورة ، شمائل الترمزي ، حكم على أحاديثه وآثاره وعلَّق عليه : محمد ناصر الدين الألباني ، اعتنى به : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط1،(د.ت) ، كتاب المناقب، باب في كلام النبي φ، حديث رقم (3639) ،ص828. (حديث حسن).وذكره أيضاً في الشمائل المحمدية، مرجع سابق ، باب كيف كان كلام رسول الله φ، حديث رقم (213) ، ص134.

[44] البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت 256هـ) ، صحيح البخاري ، اعتنى به : أبو صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض ، د.ط ،1419هـ - 1998م ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي φ، حديث رقم (3567)، ص682 ، 683. (حديث صحيح).

[45] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص203

هذا التأثير تمثَّل في أن القرآن الكريم جمع العرب على لغة واحدة وهي لغة قريش لأنه نزل بلغتهم ، مع العلم بأن هناك لهجات عربية مختلفة كانت تسود أنحاء الجزيرة العربية ، فكان له الفضل في نشر اللغة العربية (بلغة قريش) وحفظها من الضياع لتصبح لغةً حيةً خالدةً .

ومن آثاره أيضاً أنه حوَّل العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر وبذلك أحلَّ فيها معاني لم تكن تعرفها العرب من قبل ولم تكن في لغاتهم مثل : الفرقان،و الإسلام ،و الكفر ،و الزكاة ، و الصوم ، ...إلخ .

وبمرور الزمن أخذت تتكون من القرآن الكريم علوم كثيرة كعلم القراءات ، وعلم أسباب النزول ، وعلم التفسير ، وعلم الفقه وأصوله ، والنحو ، والبلاغة ، وغيرها من العلوم التي قامت لخدمة القرآن الكريم ، فهو الذي هيأ بقوة لنهضة العرب العلمية .

والقرآن الكريم هذَّب اللغة العربية من الحوشية واللفظ والغريب فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة. ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيض القرآن الكريم وينهلون من نبعه الغزير ما يقوِّم ألسنتهم ويكفل لهم إحساس القول بدون تكلّف[46].

وا إذا كان هذا تأثير القرآن الكريم في اللغة ، فالحديث النبوي أيضاً كان له كبير الأثر فيهما وا إن كان لا يبلغ أثر القرآن الكريم لأنه دونه في البلاغة .

ويتمثل أثر الحديث النبوي في اللغة والأدب في الآتي :

1- عاون الحديث النبوي القرآن الكريم في نشر اللغة العربية وحفظها وبقائها ، وكان له الفضل في توسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ دينية وفقهية لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص[47] .

2- وضع ألفاظ ومفردات وتراكيب جديدة في اللغة :

بلغ النبي φ بفصاحته وبلاغته حد الكفاية في قدرته على الوضع والاشتقاق من الألفاظ ، وانتزاع المذاهب البيانية ، حتى اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدم كلامها ، وهي تعد من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها ، وكلها قد صار مثلاً وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي .

ومن هذه التراكيب قوله φ (مات حتف أنفه) [48]. وقد روي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه أنه قال : " ما سمعتُ كلمةً غريبة من العرب – يريد التركيب البياني – إلا وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعته يقول (مات حتف أنفه) وما سمعتها من عربي قبله .

---

[46] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ، القاهرة ، دار المعارف ، ط20 ، (د.ت)،ص ص 30-34

[47] نفس المرجع السابق ، ص 40

[48] مجد الدين أبو السعادات الجزري ، مرجع سابق ،ج1، ص186

(والحتف) هو الهلاك . ومعنى العبارة أن صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه، فلم يرفع الموت أنفه في القوم ، بل أذله وأرغمه ، فكان به هلاكه، لأن حياته كانت في عزته، وعزته كانت في أنفه ، وأنفه هو الذي كبه الموت . وقد كان العرب لا يحبذون موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال ولا أمر يؤرخ به الموت في الألسنة[49]. أي أنهم كانوا يستعيذون من مثل هذه الميتة ويعتبرونها ميتة غير محمودة وليس فيها مجالاً للفخر والإعزاز .

ومن هذه التراكيب أيضاً قوله φ :(حمي الوطيس) [50].

و(الوطيس) حفرة تحفر فتوقد فيها النار للاشتواء ، فهي استعارة لحرارة القتال .

وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - (هدنة على دَخَن)[51]حيث شبَّه الهدنة التي تؤذِن بالحرب بالدخان الذي يؤدي إلى النار، أي أن السلم في هذه الهدنة ظاهري فقط ، ويضمر تحته الحرب الشعواء .

فالهدنة مؤقتة فقط ولزمن محدد لحين استعادة العدو قوته وعتاده فيتمكن من الهجوم مرة أخرى ولكن هذه المرة بقوة أكثر وجاهزية تامة .

ومن المفردات الجديدة التي وضعها - عليه الصلاة والسلام كلمة (صِير) في قوله : (من اطّلع مِنْ صِيرٍ[52] فقد دَمَر[53])[54].

وقد ذكر بعض أهل اللغة والمؤلفين في غريب الحديث بأنه لم يُسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث[55].

3- نقل الكلمة من معنى سابق معروف إلى معنى جديد غير معروف :

وخير مثال لذلك كلمة (الإمّعة) ، فقد روى حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – أن النبي φ قال: (لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ

---

[49] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ،مرجع سابق ، ص214

[50] رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب في غزوة حنين ، حديث رقم (1775)، من حديث طويل عن العباس بن عبد المطلب ، مج2 ، ص 852.

[51] أبو داؤد ، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (202هـ – 275هـ) ، سنن أبي داؤد ، تحقيق وتخريج وتعليق :شعيب الأرنؤوط –محمد كامل قره بللي ، دمشق ، سوريا ، دار الرسالة العالمية ، ط 1430هـ-2009م ، كتاب الفتن ، ج6 ، ص300 جاء في حديث طويل عن حذيفة بن اليمان.

[52] الصير : الشق من الباب

[53] دمر : دخل بدون إذن

[54] مجد الدين أبو السعادات الجزري، مرجع سابق ، حرف الصاد، ج1 ، ص532.

[55] عبد الفتاح لاشين ، من بلاغة الحديث الشريف ، السعودية (جدة، الرياض، الدمام) ،شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ط1 ، 1402هـ-1982م، ص 16 ،17،18

ن النَّاس أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا)[56]وقد كان الإمَّعَة في الجاهلية هو الذي يتبع الناس إلى الطعام من غير أن يُدعى[57].

4- **استعمال الغريب في الحديث :**

استخدم النبي ρ في بعض أحاديثه الغريب الوحشي الذي يجهله قومه وأصحابه على الرغم من فصاحتهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أُنبئكم بأهل النار ؟ قالو بلى يا رسول الله قال : كل عظٍ ، قلت ما الجظ ؟ قال : الضخم ، قلت ما الجعظ ؟ قال : العظيم في نفسه)[58] .

وقد تميَّز الرسول ρ بميزة خصه الله بها وحده ، لم تتح لأحد من قبله ولا بعده ، فقد كان يخاطب وفود العرب بلسانهم ولهجاتهم التي كانت تجهلها قريش ولا يعرفها بعض العرب عن بعض، حتى قال له علي – رضي الله عنه – وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تُكلِّم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! [59] فقال عليه الصلاة والسلام أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي)[60].

ومن ذلك كتاباته -عليه الصلاة والسلام- إلى ملوك حضرموت واليمن ، فقد كتبها بلهجاتهم التي تعتبر غريبة عن لهجة قريش وبعض اللهجات العربية الأخرى ، قد أحصاها المهتمون بغريب الحديث وفسروها . منها كتابه إلى همدان[61] الذي يقول فيه:

(...إنَّ لكم فراعها ووهاطها وعزازها[62]وأكلوها[63] لنا من دفئهم وصرامها[64]وا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثَّلبُ والفارضُ والدَّاجِنُ والكبْشُ الحوريُّ[65] وعليهم فيها الصدِّيغُ والقارِحُ[66])[67].

---

[56] رواه الترمذي في السنن مرجع سابق، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو ، حديث رقم (2007) ،ص454. (حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه).

[57] عبد الفتاح لاشين ، مرجع سابق ، ص 16 ،17

[58] الخطَّابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم البُستي ،غريب الحديث تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي ، دمشق ،دار الفكر،(د.ط)، 1402هـ-1982م،ج1،ص67. مجد الدين أبو السعادات الجزري ،مرجع سابق، حرف الجيم ،ج1، ص155.

[59] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص 215

[60] تم تخريجه

[61] همدان اسم قبيلة

[62] الفراع : مجاري المياه إلى الشعب - الوهاط والوهاد : معناهما واحد ، وهي الأرض المنخفضة- العزاز :الأرض الصلبة

[63] العلاف : جمع علف . والعلفاء ما ليس فيه ملك .

[64] الدفء والصرام : أي الإبل والغنم

[65] الثلب : البعير الهرم الذي تكسرت أسنانه – الناب : الناقة الهرمة – الفصيل :ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

[66] الفارض: المسن من الإبل– الدواجن : الدابة التي تألف البيوت الحوري يقال في تفسيره:إنه المكوي،منسوب إلى الحوراء وهي كيّة مدورة.

[67] الصالغ من البقر، والغنم : الذي كمل وانتهت سنه في السادسة – القارح من ذي الحافر :بمنزلة البازل الإبل . وكل ذلك الذي كمل وانتهى في القوة .

[68] القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ)صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه : محمد حسين شمس الدين ،بيروت ، دار الفكر ، ط1، 1407هـ-1987م ، ج2 ، ص264.

وقد كان علمه φ بهذه اللغات نتاج فطرته اللغوية في تمكنها وشدتها واستحصافها، وسبيلها إلى الإلهام وانطوائها على أسرار الوضع ، فكان محيطاً بفروق تلك اللغات مستوعباً لها على أتم ما تكون الإحاطة والاستيعاب ، كأنه في كل لغة من أهلها ، بل أفصح من أهلها. وظهر تأثير ذلك في اللغة وصفاً واشتقاقاً واستجازةً وتقليباً ، كما أثر أيضاً في العرب ومناطقها وأساليبها[69].

5/ نشأة الكتابة التاريخية :

نشأت الكتابة التاريخية ليس في السيرة النبوية فحسب ، بل أيضاً في تراجم المحدّثين للحكم لهم أو عليهم فيما نُقِل عنهم ، ولهذا كان المسلمون أشدَّ عناية بتواريخ رجالهم ، فألفوا كتباً خاصة بذلك مثل كتاب طبقات ابن سعد ، وأسد الغابة ، والإصابة والاستيعاب .. وغيرها. كما نشأت عن الحديث النبوي علوم كثيرة أخرى كعلوم الحديث ، والتفسير ، والفقه ، وهذا بلا شك أدى إلى نهضة علمية ضخمة .

وتعتبر ألفاظ الحديث النبوي الشريف ألفاظاً عربية سليمة ؛ لأنها كانت تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة ، وبالتالي فهي كنز ثمين استفاد منه المتأدبون في رسائلهم وأشعارهم على مر العصور[70] .

الخطابة عند النبي φ

كانت الخطابة في الجاهلية لا ترتكز على أساس معين من وحدة الموضوع، وصحة المنطق ، حتى جاء النبي φ فأحدث فيها انقلاباً كبيراً ، فالخطابة عند رسول الله φ ليست مجال خلابة ، ومباهاة ، وافتخار بالفصاحة ، ولا مصدرتيه واعجاب كما كانت عند الجاهليين، بل وضع φ

[69] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص218

[70] شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص40 ، 41

بخطبه ميزاناً جديداً للخطيب المنصف الأمين ، فكان المثل الأعلى للخطيب الممتاز شكلاً وموضوعاً .

والخطباء قديماً كانوا يعتبرون شكل الخطيب ومظهره من بواعث توفيقه ، فالخطيب البارز الوضيئ الوجه ، النظيف ، ذو الصوت المليئ ، واللفظ الطلق ، يجذب القلوب بمجرد رؤيته ، ويكون الناس أحرص على سماعه[71].

وقد منح الله سبحانه وتعالى الرسول φ من صفات الجمال والبهاء والبيان ما جعل خطبه تنفذ إلى قلوب السامعين وتجذب اهتمامهم.

وهكذا خطب النبي φ -على هدى القرآن الكريم -العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتي من الفصاحة والبلاغة ما ملك القلوب ، حتى كأن المعاني والأساليب عُرِضت عليه ليختار أحسنها ، وقد كان أول عهده بالرسالة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله ، ويتحدث أحياناً عن معاني القرآن المكية ، وعن رسالته ودعوته لوحدانية الله ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرِضَت الخطابة في صلاة الجمع والأعياد ، ثم في مواسم الحج.

ومعظم خطب النبي φ ضاعت بسبب طول المسافة بين خُطبه وعصر التدوين، فلم يتحصل منها إلا على القليل .

وأكثر ما وُجِد من خطبه φ خَطَبَ به بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل إليه ، فاشتملت خطبته على الوعظ أحياناً، والتشريع أحياناً أخرى ، وقد يجمع بين الطرفين أحياناً في نسيج بلاغي رائع[72] .

وقد اهتم النبي φ بالموضوع في خطبته ، فكان لا يهم بالحديث في موقف حتى يهيئ معاني القول فيه ، وما ذلك لعي أو ضعف منه ، بل لأنه φ كان حريصاً ومسؤولاً مسئولية تامة عن كل لفظ أو عمل يصدر منه ، لأنه يعلم أن صحابته سيتداولون حديثه كما نطق به، فلا بد أن يختار من الألفاظ المحددة ما لا يدع مجالاً للتفريع والتشقيق.

واتسمت خطب النبي φ بالإيجاز ، فكان يوجز في خطبه ، حيث يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، وهذا الإيجاز يحتاج إلى قوة في التعبير ، وامتلاء في اللفظ ، وشدة في التماسك، وهذه الصفات تلازم قوة العقل ، وقوة الروح وقوة الشعور ، وهذه القوى كلها أكمل ما تكون في الرسول φ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه .

فبينما كان الخطباء يطيلون في خطبهم بين تكرار وترديد للكلام ، ويعمدون إلى الإسهاب والتطويل في الخطبة لترسيخ مبادئهم في الأذهان ولإيصال تعاليمهم إلى القلوب - لأن الإيجاز في نظرهم لا يصل بهم إلى الهدف المنشود- ، كان الأمر مختلفاً عند رسول φ في عهد النبوة ، فقد

---

[71] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ، ص 79 ، 80

[72] شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص114 ، 115

استخدم الإيجاز مع قومه لأنه يعلم تماماً أنه يخاطب قوماً بلغاء يقدرون الإيجاز حق قدره ، ويعلمون أن البلاغة هي الإيجاز ، فهم إليه أميل[73] .

وقد يقتضي الأمر لمناسبة عارضة أن يفيض رسول الله φ في القول فلا يتأخر لذلك، وقد روى أبو سعيد الخدري أنه φ خطب ذات يوم بعد العصر، فما زال يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف[74]. فكان φ لا يلجأ للإطالة إلا إذا اقتضى المقام ذلك.

بيد إن الإقلال كان الأعم الأغلب في خطبه ، فقد ورد أنه كان يقصر الخطبة ، حتى قيل لعمار بن ياسر تكلَّم يوماً ، فأوجز ، فقيل له: لو زدتنا ! قال: أمرنا رسول الله φ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة. وقد (نوَحفي الحديث عشر الأنبياء فِينَا بَكَاء[75])[76] أي قلة في الكلام[77].

وهناك سمة أخرى بارزة في كلامه φ متجلية في خطبه ، هي قوة الإقناع. فكانت خطبه من روعة إقناعها الملجم بحيث لا تدع منفذاً لمهاجم متربص ، وكان مصدر هذا الإقناع الصدق الحار الذي تنفعل به نفسه نحو رسالته العالية، أجل ، قد كان صدقه الحار وإخلاصه القوي ، وإيمانه الأكيد برسالته مما يدفعه إلى قوة الإقناع ، فهو ليس خطيب قبيلة يتحدث عن مفاخرها بالباطل والحق ، ولكنه نبي يؤمن بضرورة الإصلاح الذي اقتنع به وعليه تبعاً لذلك أن يقنع الناس. وكان يستخدم وسائل عديدة للإقناع من مشهد حاضر ، أو دليل ملموس، أو سؤال واضح الإجابة ؛ ليمهد بذلك الطريق إلى العقول والقلوب[78] .

وقد كانت خطب النبي φ تصور في دقة حسن منطقه في خطابته ، إذ لم يستعن فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، لأنه كان يكره اللونين جميعاً من الكلام ، لما يدلان عليه من التكلّف ، وقد برّأه الله منه ، إذ يقول في كتابه العزيز ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ [79]﴾[80].

وقد خط الرسول φ في معظم خطبه [وخطبته الأخيرة التي أشتهرت بخطبة الوداع] حدود الحياة الإسلامية ، وتنظيم علاقات المسلم مع أفراد أمته ، وعلاقاته الصغرى مع أسرته ، ثم إلى وعظ المسلمين وما ينبغي أن يأخذوا أنفسهم به ، في سلوكهم حتى تزكوا نفوسهم ، وفي عبادتهم لربهم ، والتزام التقوى وتجنب الانحراف عن الطريق المستقيم[81] .

---

[73] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ، ص 81 ، 82

[74] نفس المرجع السابق ،ص 82

[75] بكاء : من بَكأت الناقةُ إذا قلَّ لبنها .

[76] مجد الدين أبو السعادات الجزري ، مرجع سابق ، حرف الباء ،ج 1 ، ص86

[77] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص206

[78] محمد رجب بيومي ، مرجع سابق ، ص 84 ،85

[79] سورة ص ، الآية (86) .

[80] شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص120

[81] نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة.

كما خط أيضاً للخطبة الدينية مجراها ، بدءاً بالتحميد ، والصلاة على رسول الله ، واستشهاداً بآيات القرآن . وقد ظهر تأثير الخطب النبوية في خطب خلفاء الإسلام بعده ، فساروا على نهجه[82].

[82] محمد رجب بيومي، مرجع سابق ، ص 90

حددت سورة الشعراء موقف الدين من الشعر ، فهو مع الشعر بحسب مضمونه ، فإن كان صالحاً أيَّده ، وإن كان فاسداً نبذه ورفضه، قال تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[83] . ففي الآيات ذم للشعراء، وفيها استثناء، وهذا الاستثناء للشعراء الذين كانوا ينافحون ويدافعون عن الإسلام أمثال حسان بن ثابت[1]* وعبد الله بن رواحة[2]*، وغيرهم[84].

[حيث كان بعض المشركين يدفعون بشعرائهم لهجاء الإسلام والمسلمين ، فكان شعراء المسلمين يردون عليهم هجاءً بهجاء].

ولم يكن الرسول φ يدفعهم إلى ذلك ، لأنه لم يؤمر للفخر ، ولم يبعث للهجاء ، ولكن كانت العادة العربية تجري على هذا النحو ، فلم يتركوها أول عهدهم بالإسلام ، فكان قول حسان ومن معه أشد على بعض العرب من نضح النبل[85] .

والكلمة الفصل في موقف الدين من الشعر قول النبي φ: (الشِّعْرُ كَلَامٌ، فَحَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ)[86]، أي أن الشعر كالنثر، فإذا خلا عن محذور شرعي؛ فهو مباح[87].

والكلمة في الإسلام أمانة ومسؤولية ، وقد تكون سلاحاً فتاكاً إذا استعملت في الشر، ومثل ذلك أستعملت في الخير، ولذلك مدح النبي φ الشعر عندما يستعمل للإرشاد والحكمة، فقال :(إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا)[88][89].

---

[83] سورة الشعراء ، الآيات من (224-227)

[1]* حسان بن ثابت (...-54هـ ، 563-674م): هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ، أبو الوليد . صاحبي جليل ، وشاعر النبي φ ، من المخضرمين ، عاش ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها في الإسلام ، كان من سكان المدينة ، توفى في المدينة ، له ديوان شعر مطبوع . . معجم الشعراء2/27 ، 28.

[2]* عبد الله بن رواحة (...-8هـ ، ...- 629م): هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري ، من الخزرج ، أبو محمد : صحابي جليل ، يعد من الشعراء الراجزين شهد العقبة ، كماشهد بدراً وأحداً والخندق ، استشهد في موقعة مؤتة . معجم الشعراء 249/3

[84] محمد رفعت أحمد زنجير ، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم ، جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، دبي ، ط1 ، 1428هـ-2007م ، ص39

[85] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص 213

[86] الهيثمي ، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت 807هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ،تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي،(د.ط)، 1414 هـ، 1994 م. باب الشعر في الكلام ،حديث رقم (13319)،ج8،ص122 . والحَدِيثُ عَلَّقَهُ بْنُ عَلِيٍّ الْمُرْوَنَادُهُ حَسَنٌ)

[87] محمد رفعت أحمد زنجير ، مرجع سابق ، ص39

[88] أحمد بن حنبل، أبو عبد الله (164هـ-241هـ)، مسند الإمام أحمد ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض ، د.ط، 1419هـ-1998م ، مسند عبدالله بن العباس ،رقم الحديث (3069)، ص273

[89] محمد رفعت أحمد زنجير ، مرجع سابق ، ص39 ، 40

ومع أن النبي ρ أفصح العرب إجماعاً إلا أنه لم يكن ينشد بيتاً تاماً على وزنه ، إنما كان ينشد الصدر أو العجز فحسب ؛ فإن ألقى البيت كاملاً لم يصحح وزنه بحال من الأحوال ، وأخرجه من الشعر فلا يلتئم على لسانه[90]. أنشد ذات مرة صدر البيت المشهور للبيد[1]*:

"ألا كل شئ ما خلا الله باطل" ، فصححه ولكنه سكت عن عجزه " وكل نعيم لا محالة زائل".

وأنشد بيت طرفة بن العبد[1]*:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك " من لم تزود بالأخبار".

وعجز البيت إنما هو " وياتيك بالأخبار من لم تزود ".

وقد اتفق له إقامة الوزن في بعض أنواع الرجز ، وذلك نحو قوله ρ :

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ [91]

ونحو قوله عندما دَمِيت أصبعه :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ [92]

وذلك لأن الرجز في أصله ليس بشعر ، وإنما هو وزن كأوزان السجع يتفق للصبيان والضعفاء من العرب ، ويتسق لهم الرجز عادةً عفواً من غير مجهود ، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء . وقد جعل الرجز من الشعر لتتابع أبياته ، واستعماله في كثير من الموضوعات الخاصة بالشعر ، كالمفاخرات ونحوها ، ولأنه كان الأصل في الاهتداء إلى أوزان الشعر ، فلم يكن العرب يأبهون للرجز أو يعدونه شعراً ؛ لأنه عندهم كلام كالكلام لا غير[93] .

والرسول ρ مُنَزَّه عن قول الشعر في إنشاده إلا لأنه مُنزَّه من إنشائه، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه فطرته القوية ، فمرَّ في الإنشاد، واتسع في القول إلى أن يكون شاعراً ، ولو أصبح شاعراً لذهب مذاهب العرب في الشعر ، ولتكلّف لها ونافس فيها ، ولبلغ الغاية فيها ، ثم لصرفه هذا عن الدعوة ، وعما هو أزكى بالنبوة وأشبه بفضائل القرآن . ولذا قال الله تعالى في ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ [94]﴾[95].

---

[90] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص209

[1]* لبيد العامري (...-41هـ ، ...- 661م) هو لبيد بن ربيعة بن مالك ، أبو عقيل العامري : أحد الشعراء الفرسان في الجاهلية . من أهل عالية نجد . أدرك الإسلام ، ووفد إلى النبي ρ، ويعد من الصحابة ، ترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ، له ديوان شعر مطبوع . معجم الشعراء 240/4

[2]* هو: طرفة بن العبد (نحو 68-60ق هـ ، نحو 538-564م): هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي ، أبو عمرو،شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ،ولد في بادية البحرين،كان من ندماء الملك عمرو بن هند،مات وهو ابن عشرين عاماً ، له معلقة مشهورة ،تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره ،معجم الشعراء 12/3، 13

[91] رواه البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي، (الحديث عن ابن اسحق) حديث رقم (4315)،ص814

[92] رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، (الحديث عن جُندُب بن أبي سفيان) حديث رقم (1796) ،مج2، ص864 ، 865

[93] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص209، 210

[94] سورة يس ، الآية (69)

[95] مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص211

المبحث الثاني

المعاني في الحديث النبوي الشريف

تميزت معاني وأفكار الحديث النبوي الشريف بميزات عديدة منها :

1/ دقة الأفكار :

كان سيدنا محمد ρ صاحب فكر قوى متسع شامل ، كيف لا وهو الذى نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ،وإذا كان البيان أكبر وسائله فى الإقناع والتأثير ، فلا بد أن تكون الأفكار التى يصورها هذا البيان قوية أيضاً بحيث يضمن لها التأصل والرسوخ فى النفس.

و الناظر إلى الآداب الخلقية والتشريع والأحاديث الغيبية فى كلام النبى ρ من الوجهة الفنية يجدها من ناحية الفكرة ، ذات قوة غالبة ، نفاذة ، تنبئ عن عقلية دقيقة واعية، ومن هنا كثرت الحكمة فى البيان النبوى ؛ لأن الحكمة لاتأتى إلا عن تجربة شاملة وفكر دقيق ، و هناك الكثير من الأحاديث النبوية تصو ّ ر الحكمة النبوية فى سياقها الرصين ، استفاد منها المفكرون لتكون موضع الاستدلال والتأييد.

والفكرة الدقيقة لدى سيدنا محمد ρ تأتى فى مساق واضح سهل ، وهى على دقتها النافذة لا تتعدى فى كثير من أحوالها حديثاً سيق فى مجلس ، على ملأ من الناس، ففهمه الجميع.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ ! (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا وَفِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)[95].

أوضح هذا الحديث وفي سطور قليلة ، عدد من القضايا التي يجمعها رابط دقيق ، فالحلال ظاهر وواضح ، وكذلك الحرام ، إلا أن هنالك أمور مشتبهات بينهما توجب اليقظة والحذر، وتدفع إلى الاحتراز ؛ إذ أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ،و الحمى المحظور هو محارم الله ، وهذا تصوير محسوس ملأ عقلى زاد به المعنى وضوحاً وجلاء .

وفي الحديث الآخر ،عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)[95].

معنى الحديث أن العلم لا يرتُفَع انتزاعاً بل يفنى بموت العلماء ، ومتى ذهبوا ، تصدَّر الجاهل فأفتى فضَلَّ وأضلَّ ، فهذه الفكرة الصائبة مهما طال بها الزمن ، إلا أنها لو قُرِأت على الأجيال جيلاً بعد جيل لوجدت التأكيد والتأييد.

هذة الفكرة لا يعلمها إلا من خبر الحياة وطبيعتها ونظامها ، لأن الجهل بالدين حقيقةً بدأ يستشرى بين العباد، وأصبح العلم به يندثر جيلاً بعد جيل. ويُلمَح من هذا الحديث نظرة النبي - عليه الصلاة والسلم - المستقبلية للواقع وما سيكون ، فهي توقعات ، ولكن هذه التوقعات ليست صادرة من إنسان عادي ، بل صدرت من شخص حكيم فطن.

2/ عمق المعاني في الحديث :

يتضح هذا العمق الذي تميزت به معاني وأفكار الحديث النبوي من خلال موازنة معاني الحديث بمعاني الشعر الجاهلي أو السجع في ذلك الزمان ، ففي الحديث النبوي حقائق مجردة واضحة، ولا يدع الحديث النبوي جانباً من الفكرة مهما دقَّ دون أن يسلط عليه الأنوار الكاشفة ، وبفضل عمق هذه المعاني حقق سبقاً عظيماً في مجالات عديدة وقف الناس اليوم على بعضها ، وخير مثال لذلك ماعرَفَه الحديث العظيم العميق الشهير قال : قال رسول الله φ :(مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) [95].وهذا ما توصل إليه علماء الاجتماع اليوم من أن المجتمع كالجسم الواحد[95].

3/ غنى الحديث النبوي بالأفكار والمعاني :

معاني الحديث الواحد كثيرة ومتنوعة ، لذلك كان العلماء يستنبطون من الحديث الواحد عدداً من الأحكام ، فالسنة النبوية لم تترك معنى من معاني الحياة والعقيدة والتشريع والخلق إلا وقررته وفصلَّت فيه القول[95] .

4/ تحديد المعاني :

تحديد المعاني من سمات المفكر المطمئن الذي يتدبر وينظر فيما حوله بعين فاحصة ونظرٍ ثاقب ليقرن النظير إلى النظير ، ويجمع بين الأمور المتقاربة في بعض الأحكام ، وهو مع هذا الإدراك القوي والنظر الفاحص المحيط ذو خبرة حاذقة بدخائل النفوس وأسرارها ، وهو في تحديده الدقيق يختصر مسافات بعيدة من الفحص اليقظ والتتبع الدائب ليقدم خلاصتها الموجزة مركزة في عدة نقاط .

وذلك نحو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، عن الرسول φ أنه قال:(... قيل يا رسول الله فالخيل؟ قال الخيل ثلاثة هي لرجل وزرٌ ، وهي لرجلٌ ستْرٌ ، وهي لرجل أجْرٌ ، فأما التي هي له وزرٌ فرجلٌ ربطها رياءً وفخراً ونواءً على أهل الإسلام فهي له وزرٌ ، وأمَّا التي هي له ستْرٌ فرجلٌ ربطها في سبيل الله ، ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها ، فهي له ستْرٌ ، وأمَّا

هي لَهُ أجْرٌ ، فرجلٌ رَبَطَهَا في سبيل الله لأهْلِ الإسلامِ في مَرْجٍ ورَوْضَةٍ ، فما أكلت من ذلك المَرْجِ أو الرَّوْضَةِ من شيءٍ إلا كُتِبَ له عَدَدَ أرْوَاثِهَا وأبْوَالِهَا حَسَنَاتٍ ، وكُتِبَ له عَدَدَ ما أكلت حَسَنَاتٍ ، ولا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا فاستَعْلَاهَا فَاسْتَعْلَتْ شَرَفاً أو شَرَفَيْنِ إلاَّ كَتَبَ اللهُ له عَدَدَ آثَارِهَا وأرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ ، ولا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهَرٍ فَشَرِبَتْ منه ولا يُرِيدُ أن يَسْقِيَهَا إلاَّ كتب اللهُ له عَدَدَ ما شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ)[95]

روى الرسولφ الحديث بهذا التحديد الدقيق، الذي ذكر فيه أنواع الخيل واستعرض فيه أحوال ذوي الخيول ممن يبعدون بها عن الحق ، وممن يعملون بها لأنفسهم ، وممن يعملون بها لله ثم ركَّز على النوع الثالث وأسهب في وصف مزاياه لأنه الهدف الأول من مساق الحديث وقصد به الدعوة إلى إعداد القوة الضاربة في الإسلام ، وقد كانت الخيل من أعظم مظاهرها وأقواها تأثيراً في عصر الدعوة الإسلامية .

ومن المعتقد أن الصحابة عندما سمعواهذا الحديث استعرضوا أنفسهم استعراضاً دقيقاً في ضوء ما ذكر الرسول φ، وعرفوا من ينطبق عليهم الوصف الأول من مجاوريهم من المنافقين والمشركين ، ومن ينطبق عليهم الوصف الثاني من الذين اكتفوا بالستر عن الأجر ، ثم طمحت نفوسهم لأن يكونوا ضمن من ذكرهم الحديث في الوصف الثالث ؛ أي من الذين ربطوا خيولهم في سبيل الله لأهل الإسلام ، فعجب السامعون لهذا الوصف الرائع الدقيق للمعنى ، وراعتهم هذه الغرابة والبصيرة النافذة في استشفاف النفوس ، والقدرة الفائقة على التحديد والتشخيص.

ويدخل في تحديد المعنى ذكر النبي φ للعدد في بعض أحاديثه على نحو قوله:(آية المنافق ثلاث) فالسامع عندما يسمع الحديث لا ينصرف ذهنه إلى أن للمنافق أكثر من هذه الصفات الثلاث ، ويحاول بحرص شديد ويقظة تامة أن يتتبع هذه الصفات خوفاً من أن يكون على شيء منها ، فإن وجد منها اقلاتاً استراح وحمد الله على ذلك وإن وجد نفسه قد اقترب من أحد أبوابها أجتهد أن يبتعد عنه، فذكر العدد في بداية الحديث لجذب الانتباه يعتبر نوعاً من التحديد الفني[95].

5/جِدَّة الأفكار والمعاني :

تميَّزت أفكار الحديث ومعانيه بالجِدَّة ، فمعظم مافي هذه الأحاديث من معاني، جديدة، فاجأت الدنيا كلها لم تفاجئ العرب وحدهم ، ومن هذه المعاني الجديدة الدعوة إلى المساواة دون تميز ، يَّنَهَا يا أيها الناس قولُه φ:(إنَّ ربَّكم واحدٌ ، و إنَّ أباكم واحدٌ ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ ، و لا لعجميٍّ على عربيٍّ ، و لا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلَّغت ؟ قالوا: بلى يا رسولَ الله قال : فيُبَلِّغُ الشاهدُ الغائبَ)[95].

إنه معنى جديدبالنسبة إلى الحضارات الحديثة كحضارة أوروبا ، جِدة تخطت حدود الزمان والمكان، فهذا المعنىيصلح لكل العصور ، ولكل زمان ومكان ، ويناقش كل القضايا والمشكلات

القديمة والحديثة والتي قد توجد في مستقبل الحياة ، وبهذه الصفةتفوَّق الحديث النبوي عن كل آداب الدنيا؛ لأنه أدب العصور[95] .

6/ تسلسل الفكرة :

المقصود بتسلسل الأفكار تتابعها وتساوقها ، وهي سمة ملاحظة في أحاديث النبي ρ فأفكاره في تساوقها وتتابعها كأنها ماء يطرد في نهر مستقيم القاع .

ومن نماذج تسلسل الفكرة في الحديث النبوي ماهرُواه أَبُوْرَ َةَ - رضي الله عنه- أن رسول
ل يَوْمَ الْجُمُعَةاللهρقَالَ : (الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ،احَ فِي السَّاعَةِ
الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَاَ قَرَّبَ فِيقَرَالسَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْأَقْرَنَ ،احَ فِي السَّاعَةِ
دَجَاجَةً , وَالرَّابِعَةِ رَاحَ أَفِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَاتَخَرَفِإِذَا الإِمَامُ
دَضَرَتِ الْمَلائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ)[95] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَاللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهρ: (مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ
كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا
وَالآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ
)[95] .

يظهر في الحديثين المذكورين الترتيب الرائع والتسلسل المحُكَم فالسامع للحديث مجبرٌ على اتباع الفكرة المطروحة فيه بكل حواسه متشوقٌ لمعرفة ما يليها من أفكار بيقظة تامة وذهن منفتح ، ومتعة مستمرة .

7/ الإحكام :

المقصود بالإحكام أن يكون المعنى صحيحاً في نفسه ، مصيباً الحقيقة ذاتها ، بحيث يكون ثابتاً وملازماً لها مهما تغيَّرت الأحوال والظروف والمناسبات والأزمان . وأن يكون كذلك ملماً بالحقيقة من كل أطرافها ، فلا تفوته ناحية ولا يقصر عنه جانب . ويتصل بالإحكام أيضاً الدقة المتناهية والانسجام والتوافق والتسلسل، فكلامه ρ بريئ من التنافر والتناقض والاختلاف، وقد بلغت معانيه من الإحكام والتسلسل والانسجام مبلغاً عظيماً جعل جزيئات الحديث الواحد مترابطة ومحكمة يشد بعضها بعضاً في تماسك متين ، فكل جزئية من المعنى متممة لما قبلها، ممهدة لما بعدها.

وخير مثال لذلك مارواه البخاري عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – عن النبيρ
إِنَّ قَالَصلى(يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ،الرَّجُلَلَصَدُقُ حَتَّىيكون
صِدِّيقًا ،الْكَيَذْهَبُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ،الرَّجُلُلَكَذِبُ حَتَّى
يُكْتَبَعِنْدَاللَّهِ كَذَّابًا)[95]

والحديث النبوي مع إيجازه وإحكامه مبسوط المعنى بإجزائه ، ليس فيه اضطراب ولا نقص ولا إحالة ، حتى كأن ألفاظه القليلة إنما رُكِّبت تركيباً حسبما تقتضيه طبيعة المعنى في ذاته ، وطبيعته في

النفس الإنسانية ، فإذا استوعبها السامع تَمَثَّل له المعنى تاماً مبسوط الأجزاء ، وأصاب من الكلام معنى عميقاً ، فصار كأنه يحسه ويحياه [95].

8/ الغوص في أغوار النفس :

معاني الحديث تغوص في أغوار النفس الإنسانية ، وتلامس أبعادها ، وتؤثر فيها تأثيراً عميقاً ، فإذا تأملها الشخص وتدبرها تدبر العاقل الفطن ، كان لها من الوقع في نفسه ما قد يجعله يغير مجرى حياته كلها ، ويلتزم فيها جانب الحق والصواب.

ومثال ما ذُكر حديث النبي φ عن وابصة بن معبد قال : أتيت رسول الله φ ... فقال:(جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ قُلْتُ نَعَمْ ، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلاَثَ ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي ، وَيَقُولُ: يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، اَلْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ [95])[95] .

ومما ذُكِر، فمعالم الحديث النّبوي الشّريف تنفرد بخصائص تهيأها لأن تكون معياراً سليماً للبلاغة، يفتح المجال أمام الباحثين في دراسة خصائص لغة الحديث النّبوي الشّريف.

المبحث الثالث

خصائص أسلوب الحديث النبوي الشريف

اشتمل الحديث النبوي على كثير من الخصائص الجمالية في أسلوبه، ونظمه، ولفظه، ومعناه، وصوره وتراكيبه ، مما جعل منه قيمة فنية، بلاغية، راقية ،لا مثيل لها في أساليب القول البشري . ومن أهم هذه الخصائص :

1/ الجزالة والوضوح :

جمع النبي φ في حديثه الشريف بين جزالة المفردات ووضوح الدلالة ، فكان كلامه قطعة رائعة من البيان الساحر ، تنفتح له بصائر السامعين ، وينفذ تأثيره إلى نفوسهم . وهذا ما كان يحدث للصحابة عند سماعهم لحديث الرسول φ ، فكان أسلوبه خالياً من المفردات الغريبة والأساليب المعقدة ، جزلاً ، لا يفارقه الوضوح والبيان ، بعيداً عن الابتذال ، متين التركيب وفخم الإيقاع .

وقد كان الرسول φ يكره التقعُّر والإغراب في الحديث، ويؤثِر الوضوح والسهولة في التعبير، حتى يكون كلامه مفهوماً لدى السامعين، بل كان أحياناً يترك لهجته القرشية إذا جاءه وفد من القبائل العربية الأخرى، ويكلمهم بلغتهم التي يفهمونها؛ حرصاً منه على أن يكون الكلام مفهوماً واضحاً لسامعيه، ولو ركب في سبيل ذلك الصعب الذي لا يألفه ، وكانت الكلمات التي تبدو غريبة في خطابه مع هذه القبائل هي الكلمات الحية الواضحة المستعملة عندهم .

أما بالنظر إلى عامة الأحاديث النبوية ، فالطابع العام لها هو الوضوح مع الجزالة، لأن مهمة الرسول φ هي تبليغ الرسالة والنفاذ بها إلى قلوب الناس وإقناعهم بها ، ولا يتحقق ذلك إلا بالكلام الواضح المفهوم الجزل المتين[95].

مثال ذلك :

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله φ قال: (إياكم والظنَّ ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً)[95] .

2/البُعد عن التكلُّف :

كره الرسول φ التكلُّف في القول ونهى عنه ، وقد جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى على لسان نبيه φ: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88))[95].

فالتكلُّف من عيوب الكلام ، لأن السامع لا يفتح صدره لمن تكلَّف في حديثه، لما يجد فيه من استثقال، وتصنع ، وإن كان حديثه صائباً ، فمسحة التكلُّف التي اتسمت به تجعله أشبه بالقول المخطئ وما هو به ، لأن الروح التي يصدر منها لا تظهر صافية مطبوعة ، بل تعاني من آثار التكلّف والتصنُّع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة .

لأجل هذا عاب الرسول φ التكلُّف والتَشَدُّق والثَرثَرة ؛ لأن هذه الصفات تنأى عن الفطرة السليمة ، والنهج الأصوب ، وتدخل في إطار التصنع والافتعال الذي إذا دخل في كل أمر أحبط تأثيره .

ولذلك تميز بيان سيدنا محمد φ بسهولة المأخذ ، وقرب المتناول ، فإذا أتى السامع حديثه ظنَّ لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته ، فإذا أراد أن يأتي بمثله طاش وحار . فكلامه φ ليس باليسير السهل الذي يُمَلُّ على التكرار ، ولكنه يتردد ويظل محتفظاً بجدته الطريفة ، لأنه نتاج فكر دقيق ، يزن الرأي السديد ميزاناً تاماً ثم يعرضه في سهولة ويسر[95].

ومن ذلك قوله φ: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[95].

لقد جاء هذا الحديث سهلاً ، قريب المأخذ يفهمه ، كل إنسان مهما كانت درجة عقله من التفكير، ومع أنه اشتمل على التكرار إلا أنه لم يفقده رونقه وجماله، بل أفاد المعنى تأكيداً وتوضيحاً كما أن صياغته الأدبية ترمز إلى عقل دقيق ، خَبِر أحوال الناس وعرف فوارقهم في

القدرات والأعمال ، فمنهم من يستطيع مواجهة الباطل بقوته ، ومنهم من يعجز عن استخدام قوته فيستعمل لسانه ، ومنهم من يكون مغلوباً على أمره مسلوب الإرادة فتكون مشاركته بقلبه فقط . وهذا أضعف إيماناً من سابقيه . فسهولة التعبير في هذا الحديث لم تكن مانعة لسداد الرأي وبُعد النظر[95] .

لذلك اتصف أسلوب النبي ρفي الحديث ببعده عن التكلُّف والتصنُّع في أساليب النثر المألوفة ، فأسلوبه بعيد عن ذلك ، يفيض عن الفطرة السليمة الصافية، والنفس المجتمعة الهادئة، والعبقرية الفذَّة المتألقة، فلا تجد في حديثه التكلُّف في سجع ، ولا التصنع السمج في صورة ، بل تلمح فيه سجيةً مرسلةً وأسلوباً حراً من كل قيد، خالياً من كل زخرف مستكره[95].

3/الإيجاز وجوامع الكَلِم :

عَرَّف ابن الأثير[95] الإيجاز بأنه"هو حذف زيادات الألفاظ "، وهذا نوعٌ من الكلام شريفٌ ، لا يتعلَّق به إلا فُرسانُ البلاغة ، من سبق إلى غاياتها وما صَلَّى ، وضرب في أعلى درجاتها بالقِدْح المعلَّى ، وذلك لعلوِ مكانه وتعذُّر إمكانه . والنظر فيه إنَّما هو للمعاني لا إلى الألفاظ ، ولستذلكأعني أن تهمل الألفاظ ، بحيث تعرَّى عن أوصافها الحَسنة ، بل أعني أن مَدار النظر في هذا النوع إنما يختصُّ بالمعاني فرُبَّ لفظٍ قليل يدلُّ على معنى كثير، ورُبَّ لفظٍ كثيرٍ يدلُّ على معنى قليل"[95].

وتعريف ابن الأثير فيه إشارة إلى خطورة الإيجاز وضيق ميدانه إلا على فرسان البلاغة الذين وصلوا الذروة العليا فيها ، ثم جعل مدار الاهتمام فيه خاصاً بالمعاني أكثر من الألفاظ ، على ألا تهمل الألفاظ ، فكأنما أراد أن ينبِّه بأن جمال هذا الأسلوب يُحْمدُ في المعاني أكثر من الألفاظ ، وأن مهارة البلاغي في هذا الفن تتأتى في إيجازه للمعنى أكثر من اللفظ .

ثم عاد وشبَّه ذلك بالجوهرة الواحدة بالنسبة للدراهم الكثيرة فيقول : "ومثال هذا كالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يُؤْثِر الدَّراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعاني يُؤْثِر الجوهرة الواحدة لنفاستها"[95] .

و(جوامع الكلم) التي وهبها الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، تعتبر من الإيجاز الذي قصده ابن الأثير ،الذي لا يعرفه إلا فرسان البلاغة، والنبي ρمن هؤلاء الفرسان، بل أبلغهم وأفصحهم لساناً ، وكل أحاديثه اشتملت على جوامع الكلم ، وقد تناولت جوانب كثيرة اختصت بحياة الأفراد والجماعات ، وشتى مناحي الحياة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام مُقِرَّاً بهذه الصفة "جوامع الكلم" : (أُعطيتُجَوامعَ الكلِمِ واختُصِرَ ليَ الكلامُ اختصاراً)[95].

قال المِنَّاوي* في شرح هذا الحديث :

(أعطيت جوامع الكلم) أي ملكة اقْتَدِرُ بها على إيجاز اللفظ مع سعة المعنى بنظم لطيف لا تعقيد فيه يعثر الفكر في طلبه ، ولا التواء يحار الذهن في فهمه ، فما من لفظة يسبق فهمها إلى الذهن إلا ومعناها أسبق إليه ؛ وقيل أراد القرآن ؛ وقيل أراد أن الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الأمور المتقدمة جُمِعَت له في الأمر الواحد والأمرين (واختصر) أي أُوجِز (لي الكلام) حتى صار ما أتكلَّم به كثير المعاني قليل الألفاظ ، وقوله (اختصاراً) مصدر مؤكد لما قبله . فهو الجامع لما تفرَّق قبله في الرسل من الكمال المخصوص بما لم يعطه أحد منهم من المزايا والإفضال ، فمما اختص به عليهم الفصاحة والبلاغة) [95] .

ومن هذا التفصيل لمعنى جوامع الكلم يُتَوصَّل إلى أن المقصود بها : أن تحتوي الجملة القصيرة على معانٍ كثيرة ، وأمثلة ذلك في الحديث النبوي كثيرة منها:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(كما تَكونوا يولَّى عليْكُم) [95].

هذا الحديث المختصر العبارة يشتمل على أشياء كثيرة ، منها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها وعن ما تفعله تلك الحكومات ، وأنه إذا قَبِلَت الأمة وضعاً سياسياً فاسداً بحجة أنها مكرهة عليه، لا يلغي مسئوليتها تجاه تغييره ، وأن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة ، وأنه لا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيَّد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال ، وينطوي فيها أن الولاية تبع وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وينطوي فيها أن الأمة مصدر السلطات ، وأنها تستحق الحكم الكائن عليها حتى لو لم يكن حكم صلاح واستقلال[95] .

فالأمم مسؤولة عن أي حكم سواء كان حكم صلاح أو استبداد ، وهي التي في يدها قبول أو رفض الوضع الذي تعيشه .

ومن جوامع الكلم أيضاً قوله ﷺ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَإِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) [95].

هذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة ، وذلك لأنه يشتمل على جُل الأحكام الشرعية ، فإن الحلال والحرام إما أن يكون الحُكم فيهما بيِّناً لا خلاف فيه بين العلماء ، وإما أن يكون خافياً يذهب فيه وُجُوه التأويلات ، فكلٌ منهم يذهب فيه مذهباً . ومن جوامع الكلم أيضاً ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث مطوّل يتضمن سؤال جبريل عليه السلام فقال في جملته (قال : يا رسولَ اللهِ ما الإحسانُ ؟ قال الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ)[95].

فقوله: (تعبد الله كأنك تراه) من جوامع الكلم لأنه يجمع في عبارته الموجزة معاني كثيرة، فكأنه قال : تعبد الله مخلصاً في نيتك ، واقفاً عند أدب الطاعة من الخضوع والخشوع، آخذاً أُهْبَة

الحذر ، وأشباه ذلك بد ؛ لأن العبد المستخدم مولاه ناظراً إليه استقصى في آداب الخدمة بكل ما يجد إليه السبيل،وما ينتهي إليه الطوق [95].

وفيه حثٌ على إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى ، وإتقان العمل، ومراقبة الضمير في كل مايخص المسلم من عبادات ومعاملات ،لأن الله سبحانه وتعالى هو المطلع على خبايا النفوس ونواياها ، وهو القائل جل وعلا: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)[95] .

ومنه قوله φ: (سلوا الله اليقين والعافية)[95]، فهذه الوصية تشتمل على خيري الدنيا والآخرة ، فملاك أمر الآخرة اليقين ، وملاك أمر الدنيا العافية ، فكل طاعة لا يقين معها هدر، وكل نعمة لم تصحبها العافية كدر [95] .

ومن جوامع الكلم أيضاً في القضايا والأحكام : (المؤمنون تكافأ دماؤهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم)[95] وقوله: (العاريةُ مؤداةٌ, والمنحةُ مردودةٌ, والدَّيْنُ مقضيٌّ, والزعيم غارمٌ)[95] فهذان الحديثان على خفة ألفاظهما يتضمنان عامة أحكام الأنفس والمال[95] .

وهناك أحاديث كثيرة في القضايا والأحكام، وأصول السياسة ، والأخلاق والاجتماع ، مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام .

ومع أن العرب عموماً كانوا يميلون للإيجاز ويعتبرونه من البلاغة، إلا أن هناك بعض المواقف التي كانت تسلتزم التطويل في الكلام ، ذكرها جماعة من اللغويين ، منهم ابن الأثير الذي قال :

"واعلم أن جماعة من أرباب هذه الصناعة أجمعوا على أن الكلام ينقسم قسمين : فمنه ما يحسن فيه التطويل ، كالخطب، والتقليدات السلطانية ، وكتب الفتوح التي تُقرأ في ملأ من عوام الناس ، فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم ، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والإشارة ، لم يقع لأكثرهم حتى يقال في ذكر الحرب تطاعن الفريقان ، وتقاتلا، واشتد المصاع ، وحمي القراع وما جرى هذا المجرى" [95].

ونوّه بأن يلتزم مؤلف الكلام - إذا أراد التطويل - شروط معينة ، فليست الإطالة في الكلام بالشيء اليسير ، وإنما هي أيضاً فن من فنون الكلام ، له ضوابط وقواعد معينة إذا اتبعها المؤلف تحققت الفائدة المرجوة من كلامه, وأمن من الوقوع في الزلل والاستكراه، فقال:

"والذي يجب على مؤلف الكلام اعتماده ، هو أن يسلك المذهب القويم ، ويجهد أن لا تزيد ألفاظه على معانيه مع الإيضاح لها والإبانة عنها ، فإنه إذا فعل ذلك خرج من عهدة الملامة ، وليس عليه أن يفهم العامة كلامه ، فإن نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون ذلك نقصاً في استنارته ، وإنما النقص في بصر الأعمى حيث لا يستطيع النظر إليه "[95].

وقد ورد عن النبي φ أنه أطال في بعض خطبه ومعاهداته ، ولم يكن هذا حباً منه في الإطالة ، ولكن لأن الموقف هو الذي استدعاه إلى ذلك ، فكان إذا كرر اللفظ بعينه كما جاء في

بعض المعاهدات ؛ فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيص عنه، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه ، وهو سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الإعادة التي روي إنه كان يتوخاها عليه السلام أحياناً ليعقل كلامه .

ومن ذلك كتابه إلى النجاشي ، وما ورد فيه من زيادة من أسماء الله الحسنى ، ومن الإشارة إلى المسيح وأمه ، لم تُؤْثَر في الكتب الأخرى ، ولكنها ألزم ما يلزم في خطاب ملك مسيحي يُراد منه أن يفهم [ما جاء في دين المسلمين عن حقيقة خلق المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام]، وكيف يبتغي طريق المقابلة بين العقيدتين [المسيحية والإسلامية] إذا شاء وما قال فيه :(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ الْأَصْحَمِ سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ فَحَمَلَتْ بِعِيسَى مِنْ رُوحِهِ وَنَفْخَتِهِ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)[6].

فكتاباته ومعاهداته لا زخرف فيها ولا حيلة ، ولا مشقة متعمدة في ابتغاء التأثير، وكل كلمة فيها مقصودة بمقدار .

وعموماً فالمواقف التي استدعت التطويل في كلام النبي ρ قليلة ، لأن السمة العامة لكلامه هي الإيجاز ، وقد عُرِف في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام، معرضاً عن اللغو،لا يقول إلا بالحق وإن قاله في مزاح . فمن ثمَّ لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة[6] .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يكره الثرثرة و الثرثارين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (إن رسول الله أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثَّرثارون والمتشدقون والمتفيهقون ، قالوا : يا رسول اللَّه ، قد علمنا الثَّرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون)[6].

4/ الأصـــالـــة :

طالَ الشيءُ في اللغة: مصدر أَصُلَ ، والأَصْلُ : أسفل كل شيء وجمعه أُصُول ، ورَجُلٌ أَصِيل: ثابت الرأي عاقل[6] أَصَالة : ثَبت وقَوِيَ . والأَصَالة في الرأي : الإتيانُ بفكرة مبتكرة. مبتكرة. وفى النَّسب :عراقته ، فمعانى الأصالة تدور حول الابتكار ، والجودة ، والإحكام، والثبات[6].

والأصالة في الاصطلاح: هي قدرة الأديب على أن يفكِّر وأن يعبِّر عن ذات نفسه بطريقة مستقلّة"[6]. أي "أن يكون أسلوب الشخص خاصاً به ، لا ينهج فيه نهج غيره ، وأن تكون في

في عباراته طرافة وجِدَّة ، مع حلاوة ملموسة ، تحمل من بعده أن يحرصوا على اقتباسها واستعمالها"[6].

والأصالة في الأسلوب تنبني على ركنين أساسيين هما:خصوصية اللفظ، وطرافة العبارة، وتلك هي الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ، والسمة المميزة للكاتب الحق، وملاك الأصالة أن لا يكتب الأديب كما يكتب الناس، ملاكها أن يكون الأديب أصيلاً في فكرته ، وكلمته ، وصورته، ولهجته، وأسلوبه ومنهجه ، فلا يعمد إلى تقليد غيره، ولا يستعمل لفظاً عاماً ، ولا تعبيراً محفوظاً ، ولا استعارة مشاعة.

أما خصوصية اللفظ ، فهي دلالته التامة على المعنى المراد ، ووقوعه الموفق في الموقع المناسب ، وآية مطابقته لمعناه ومبناه، وتعذُّر نقله أو تبديله والخصوصية في اللفظ أصل الدِقَّة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة؛ لأن الكلمة إذا تمكَّنت في موضعها الأصيل ، دلَّت على المعنى بكلّ مشقة أو عناء ، أما إذا حُشِرَت فيه حشراً دلَّت على بعض المعنى وأغفلت غيره.

وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع وخَلْق؛ لأن الكلمة ميتة ما دامت في المعجم، فإذا وصلها الأديب بأخواتها في التركيب، ووضعها في موضعها الطبيعي في الجملة دَبَّت فيها الحياة سَرَت بها الحرارة ، وظهر عليها اللون ، شأنها في ذلك شأن الكائنات الحية[6].

أما طرافة العبارة فأسُّه الابتكار في حكاية الخبر ، وتصوير الفكر ، وتقويم الموضوع. وهيهات أن تجد الجملة المبتكرة ، التي تثير الإعجاب ، وتُحْدِث الأثر ، وتحرِّك الإحساس، إلا إذا وجدت الكلمة الخاصة التي تحدد الفروق، وتجدد العلاقة، وتبعث الحركة . وبخصوصية الكلمة ، وجِدَّة العبارة يتحقق الطبع في الأسلوب[6].

وقد اتصف الحديث النبوي الشريف بالأصالة في الكلمة، والتركيب، والطبع، وهي تتجلى فيه تجلياً واضحاً في الكلمات، والعبارات الحلوة، والتراكيب الجميلة ، التي اقتضبها النبي ﷺ لم تَسْمع العرب عنها من قبل، مثل "حَمِيَ الوطيس، ومَات حَتْفُ أنْفِه، وهُدْنة على دخن"[6]. وغيرها من الألفاظ والتراكيب الجديدة التي أصبحت تجري مجرى الأمثال[6].

فالأصالة في الحديث النبوي الشريف تنبع من نفس هيأها الله سبحانه وتعالى لحمل رسالته، وحباها بالفطرة السليمة ، والحكمة الراشدة ، والبصيرة النافذة ، والجمال الروحي ، والبلاغة العالية، والقدرة على اختيار الألفاظ وتوظيف المعاني، فتفرَّد النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفات جعل أسلوبه في الحديث النبوي الشريف يسمو على كل أساليب البشر في ذاتيته وخلوصه وأصالته ، بل وفي كل شيء .

5/ التصوير الفني في الحديث النبوي :

وسائل التصوير الفني في الحديث النبوي الشريف:

مفهوم الصورة:

"الصورة " تعني كل عناصر الشكل بحيث توضع بإزاء المضمون ، وهي متحدّ ِة معه تماماً بحيث لا يمكن الفصل بينهما . ودراسة أي نص ينبغي أن تكون في إطار العلاقات التي تقيمها لغة النص من حيث التراكيب والصور والرموز، وليست اللغة مجرَّد مفردات حديثة قائمة بذاتها ، ولكنها أهم ُ من ذلك بكثير ، إنها علاقات متداخلة متشابكة،والنّص نسيج متكامل يتداخل فيه إيقاع الذات وا يقاع البيئة والمجتمع والثقافة[6].

يقول الدكتور حسن طبل عن مفهوم الصورة : "إن الصورة بعبارة بسيطة هي التعبير باللغة المحسوسة عن المعاني والخواطر والأحاسيس ، فاللغة التصويرية أو الفنية ليست سرداً تقريرياً للحقائق ، أو بثاً مباشراً للأفكار ، ولكنها تجسيد وتمثيل لتلك الأفكار والحقائق في صورة محسوسة يعاينها المتلقي ، ويدركها إدراكاً حسّ ِياً فيكون لها من ذَمَّ فعاليتها في نفسه وعمق أثرها في وجدانه"[6].

والتصوير الفني بصفة عامة هو إحدى الخواص النوعية الأصيلة في كل تعبير أدبي. بل قد يكون هو أصل تلك الخواص وجوهر ها الثابت وأساسها المكين ، فإذا كانت مادة الأدب هي ألفاظ اللغة وأنماطها التعبيرية ، فإن فنيته إنما تمثل استثمار إمكانات تلك المادة وتوظيفها في خلق (صورة فنية) تجسد تجربة الأديب وتوحي بأعمق أغوارها وتخومها في نفسه ، وأدق خلجاتها في وجدانه. بتلك الخاصية يتمايز الأدب عن غيره من ضروب التعبير المشتركة معه في نفس مادته في أي فرع من فروع المعرفة . فاللغة على لسان أي عالم من علماء هذه العلوم إنما هي لغة توصيل وتقرير للأفكار والحقائق ، أما على لسان الأديب فهي أداة تشكيل وتصوير ، وهي من هذه الزاوية لغة خاصة متفردة أو (لغة داخل اللغة)[6] .

ويحدد حسن طبل بعض الأدوات والوسائل التي يعتمد عليها لتصوير الفني عموماً - غير الصور المجازية أو الحقيقية – وهي الخيال، وجرس الألفاظ وتشكيلها الصوتي . فإذا كانت المحسوسات هي المادة التي تتشكل منها الصورة فإن وسيلة هذا التشكيل لدى الشاعر أو الأديب هي الخيال. فالخيال إذن هو الطاقة النفسية القادرة على استثارة صور الأشياء والموجودات الحسية وا دراكها بعد غيبتها عن متناول الحس . وليست وظيفة الخيال وقفاً على استثارة الصورة من مكامنها في الذهن واستعادتها كما هي عليه في الواقع فحسب ، بل إنه كذلك القدرة على التأليف بين تلك الصورة وا عادة تشكيلها الخارجي . فهو ليس مجرد مرآة تنعكس على صفحتها صور الأشياء ، ولكنه طاقة ايجابية نشطة لها فعاليتها في صياغة الصور ، وتمثلها في هيئات قد يتعذر وجودها في الواقع . والخيال وا ن كان م َ لَكَ َة من الم َ لَكَ َات التي يتمتع بها الجنس البشري إلا أنه

يتفاوت في درجاته قوة وضعفاً من فرد إلى آخر ويبلغ ذروته وفعاليته لدى أصحاب المواهب من الأدباء والشعراء ، وهو أيضاً وسيلتهم إلى التفرّد وطريقهم إلى الإبداع[6].

أما بالنسبة لجرس الألفاظ وتشكيلها الصوتي، فجرس اللفظة بالبنية الصوتية الخاصة لها قد يكون في حد ذاته أداة لرسم الصورة وتقديمها للخيال ، وذلك مثال قوله تعالى (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)[6]. فلفظة (صرّ) بجرسها الخاص المنبثق عن تكرار حرفي الصاد والراء ، ترسم صورة لعنف تلك الريح ، فكأن السامع مع هذه اللفظة يسمع الصرير المتجاوب والدمدمة العاتية لتلك الريح التي أهلكت قوم عاد[6].

وفي كلام الدكتور حسن دلالة واضحة على أن جودة الصورة الفنية في أي عمل أدبي تعتمد على براعة الأديب وقدرته الفائقة على التخيّل واختيار اللفظة المناسبة التي تساعده في إخراج الصورة في أتم وأكمل ما تكون عليه، فالعمل الأدبي ليس أمراً سهلاً، وإنما يحتاج لمهارات عالية ، وإلا كان بمقدور أي إنسان أن يكون أديباً ، ولما كان هناك تمايز وتفاوت بين الأدباء أو الشعراء في درجاتهم الإبداعية .

وبالرغم من أن مصطلح "الصورة الفنية" من المصطلحات النقدية المعاصرة إلا أن وعي النقاد بها كان قديماً قدم الإبداع الأدبي ذاته ، إلا أنه قد يتطور مفهومها أو زاوية النظر إليها من عصر إلى عصر، أو من مذهب نقدي إلى آخر . كما قد تتغير وظيفتها أو تتعدد تسمياتها تبعاً لذلك، ولكن تظل هي لُبّ باب الفن القولي وجوهره على مر العصور في نظر كل من الأديب المبدع والناقد المقوّم[6].

وقد وجّه كثير من علماء البلاغة عنايتهم إلى الآثار النفسية والجمالية التي تحدثها الصورة في نفوس متلقيها، ومدى قدرتها على تبليغ المعاني وتمثلها. ويعد عبد القاهر الجرجاني من أبرز النقاد والبلغاء العرب الذين اعتنوا بالصورة الفنية وأثرها في النص الأدبي، وبيَّن النواحي الفنية والجمالية فيها، ووقف عند ماهيتها ومكوناتها، وعلاقتها بنفسية وذوق المبدع والمتلقي[6]. يقول عبد القاهر الجرجاني :

"واعلم أنهّما اتفق العقلاء عليه أن (التمثيل) إذا جاء في أعقاب المعاني، أو وَزَتْ هي باختصار في معَرْضه، ولنثُقٍ عن صورتها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكسَبَها مَنْقَبَةً ، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبَابةً وكَلَفاً، وقرَ الطّباع على أن تعْطيها محبَّةً وشغَفاً "[6].

فعبد القاهر في هذا النَّص يربط الصورة بدوافع نفسية، بالإضافة إلى الخصائص الذوقية، حيث تتضافر هذه الخصائص فيما بينها في نسج متين السبك، لتعطي الصورة شكلاً ورونقاً وعمقاً مؤثراً .

وقد وجدت دراسة الصورة الفنية، وتحديد ماهيتها ووظيفتها في العمل الأدبي بشكل عام، والاهتمام بتحليل الصورة الفنية القرآنية وتمييز أنواعها وأنماطها المجازية بشكل خاص، اهتماماً كبيراً من قِبَل البلاغيين باعتبار أن القرآن كان وسيظل المثل الأعلى للبلاغة العربية[6].

يقول الدكتور سيد قطب*"التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبّر بالصورة المحسَّة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حيٌّ ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة وفيها الحركة؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل، فيصبح المستمع كأنه ينظر إلى منظر يعرض أمامه بحركاته وانفعالاته وأحداثه وشخوصه وليس مجرد كلام يُتلى أو مثل يُضرب. وإذا ما نظرنا إلى الأداة التي تصوّر المعنى الذهني، والحالة النفسية ، وتشخّص النموذج الإنساني أو الحادث المروي ، إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصوّر ولا شخوص تعبّر، أدركنا بعض أسرار هذا الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن"[6].

وهنا يقرر السيد قطب – بعد تفصيله لوسائل التصوير في القرآن الكريم - حقيقة مهمة للغاية ، وهي أن التصوير في القرآن الكريم يعد من ضمن الأسباب التي يقوم عليها الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم . كيف لا ؛ وهو يخاطب بتصويره الفني الرائع العقل والوجدان ، والروح ، ويتغلغل في خلجات النفس محدثاً تأثيراً عجيباً ولذيذاً عليها.

وقد لاحظ سيد قطب أن دائرة معنى التصوير الفني وآفاقه في القرآن الكريم تتسع اتساعاً كبيراً ، " فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالتخييل ؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل. وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقي السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين، والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان. وهو تصوير حيٌّ منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة. تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات. فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيَّة، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة[6].

وكما أن التصوير الفني في القرآن الكريم يعتبر قيمة فنية جمالية معجزة ترمي إلى التأثير في السامعين ، كذلك اشتمل الحديث النبوي على الكثير من الصور الفنية التي رمت لنفس الهدف فاكتسب بذلك فضلاً وشرفاً وبياناً وروعة .

والصلة الفنية في الأحاديث النبوية جديدة ، تَبْعُد عن إطار الصور المألوفة المتكررة في الشعر الجاهلي ونثره . والصدق الفني والبصيرة النافذة من العناصر الأصيلة في التعبير في

الحديث النبوي ، بحيث يبتعد عن الأشكال التقليدية المعروفة، وتقدّم نصوصه تصورات جديدة ، لا من حيث المضمون فحسب ، بل من حيث الصورة أيضاً .

وقد اعتمد الحديث النبوي على وسائل كثيرة في تصويره ، بعضها كان معروفاً لدى العرب في شعرهم ونثرهم ، كالتشبيه ، والمجاز بقسميه ، والكناية ، وبعضها لم يكن واضحاً في نتاجهم الأدبي كالوصف ، والقصة ، والتجسيم والتشخيص ، والموازنة ، والإشارة والرسم.

والحديث النبوي وسائل التصوير المعروفة قدَّم تصوُّراً جديداً ، وفتح آفاقاً جديدة للتخيُّل والإدراك ، على الرغم من وجود علاقة واضحة بين صوره والبيئة ، والمجتمع ، والتقاليد، والعادات المألوفة[6].

ومن وسائل التصوير في الحديث النبوي الشريف :

أ)التصوير بالوصف :

ربما كان الوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة وحسن الإدراك والتدفق العاطفي أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الوسائل المألوفة في التصوير ، إنه ينقل لك أمام عينيك المشهد حتى تكاد تحس به بحواسك وتلمسه بيديك . وهو ليس مجرد تصوير فتوغرافي آلي، ولكنه تصوُّر إدراكي ، فيه إلى جانب موضوعيته قدر كبير من ذاتية صاحبه[6].

وقد امتاز الحديث النبوي الشريف بدقة وصفه للأشياء ، فقد كان الرسول φ بارعاً في وصف الأشياء بدقة متناهية ، وإن كان وصفه موجزاً لها ومقتضباً ، إلا أنه يبلغ منتهاه وغايته من الدقة والروعة .

والوصف عموماً عند الأدباء يعتمد على الخيال ، لذلك اعتبروه دعامة من دعائم الشعر، إذ يطلق الشاعر العنان لنفسه في وصف الطبيعة والجمال والحب . لكن حديث رسول الله φ كان خالياً من ذلك النوع من الخيال ، لأن بلاغته الفنية سُخّرت للدعوة وظهرت في مجالاتها، ولم تكن صناعة فنية يمارسلهفي الأغراض والموضوعات كما يفعل الشعراء والبلغاء. فقد تَرفَّع الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام عن كل ما لا يليق بمكانة النبوة السامية من الموضوعات والأساليب[6].

وفي ذلك قال الرافعي :

" إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية إنما هو باب من الأحلام ، إذ لا بد فيه من عيني شاعر أو عاشق . وهنا نبي يوحى إليه، فلا موضع للخيال في أمره إلا ما كان تمثيلاً ، يُراد به تقوية الشعور الإنساني بحقيقة ما ، في بعض ما يُعرض ، من باب الإرشاد والموعظة"[6] .

فوجود الخيال في الحديث النبوي أمرٌ غير متوقع إلا عندما يكون مصدراً للتشبيه والتمثيل والتصوير ، ولا يوجد فيه وصفاً للطبيعة والجمال .

والموصوفات في الحديث النبوي متنوعة ، ففيها ما يتعلق بالإنسان ، وبالحيوان، وفيها ما يتعلق بالأمور المعنوية ،إلا أن نصيب الموصفات المعنوية أوفر في الحديث النبوي.

وقد اتخذ الحديث النبوي وسائل عديدة للوصف ، أهمها اعتماده التشبيه والتصوير . فالرسول φ كان يؤثر استخدام التشبيه المحكم كوسيلة فعلية للوصف الدقيق الذي يستجمع شرائط الجودة كلها[6] .

وتتجلى دقة الوصف أيضاً في الأحاديث التي تصف أموراً غيبية كنعيم الجنة، والخيرات الحسان التي يلقاها المؤمنون الصادقون ، ومن ذلك وصف أهل الجنة :

(إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعا في السماء)[6] .

في هذا الوصف الرائع للحياة الغيبية في جنان الرحمن التي وُعد المتقون ، يصف الرسول φ صورة بديعة عن النعيم الذي سيعيشه المؤمنون في الجنة ، من حياة رغدة ، وعيش هنيئ ، لا يكدر صفوه المتاعب والمصاعب ، ولذات متوالية من أكل وشرب وكسوة ومتعة ، وطيب حياة زوجية هادئة ، إنها حياة تختلف عن حياة الناس في الدنيا ، ليس فيها ألم ولا جوع ولا عري ولا ظمأ ، ولا تباغض ، ولا أحقاد، ولا بغض ولا كره . حقاً إنها الحياة المثالية ، حياة الجمال الكامل[6].

والمستمع لهذا الحديث، دون شك ، سيستعرض هذا الوصف الجميل بخياله، ويهيم فيه باحساسه وشعوره ، فيتصور الحياة في الجنة ، بكل جمالها ومتعها وخيراتها، ماثلة أمامه، فيحدوه شوق للفوز بها ، ويتخذ كل الأسباب التي توصله إلى ذلك ، فيحرص على اتباع كل ما جاء في الكتاب والسنة ، فيفعل الخيرات، ويلتزم الصواب، ويسير على النهج القويم.

إذن فالوصف هنا يقرب هذا الأمر الغيبي الذي لا يستطيع الإنسان أن يدركه إلا بعقله ووجدانه .

ومن دقة الوصف في الحديث النبوي أيضاً ، وصف النبي φ لموقف الناس من الدعوة[6]:

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[6].

قال القرطبي* وغيره: ضرب النبي ρ لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي في حال حاجتهم إليه، وكذا كان الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت. ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم. فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها. ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: "نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فأداها كما سمعها".ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. وإنما جمع المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها"[6].

هذا الوصف الرائع الموجز صورة منتزعة من حياة العرب الذين يهتمون بالمياه والزراعة والرعي ، فجاء الوصف مطابقاً لبيئة العرب[6].

التصوير في هذا الحديث رائع ، أصاب موقعه بدقة ، فلم يكن التشبيه لصورة غريبة لا يألفها الناس ، ولكن أتى بصورة عادية يألفها الناس في حياتهم العادية مطابقة لبيئتهم ، فيسهل بذلك الفهم ، وتتم الفائدة المرجوة من الحديث ، وتعلق الصورة بالأذهان .

ومن دقة الوصف أيضاً هذا الوصف الجميل للناس المتحابين في الله :

عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ρ: إنَّ من عباد الله لأُناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله . قالوا: يا رسول الله : فخبّرنا من هم ؟ قال : هم قومٌ تحابُّوا بروح الله على غير أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ ، يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنورٌ ،وإنَّهم لعلى نورٍ ، ولا يخافون إذا خاف النَّاس ، ولا يحزنون إذا حزِن النَّاس)[6].

هؤلاء المتحابون في الله، وصف مكانتهم الكريمة، تجعل الأنبياء والشهداء يغبطونهم على مكانتهم، فقد كانت محبتهم لله صافية، لا تربطهم أرحام، ولا مصالح مالية ولا علاقات نفعية، بل حبهم خالص لوجه الله تعالى، وجوههم نور وإنهم على نور، إذا خاف الناس كانوا آمنين، لا يحزنون إذا حزن الناس.هذا النص يفيض بالود والمحبة، ويُشرق بالأمن والتفاؤل والعيش الكريم[6].

ب) التصوير بالقصة :

التصوير بالقصة من أجمل أساليب التصوير وأعمقها أثراً في النفس ، وذلك لأن النفس البشرية ميالة لسماع القصة ، لما تجد فيها من إمتاع ومؤانسة وتشوُّق لمعرفة أحداثها، وقد تجد منها ما تريده أو ما تحياه أكثر من أي وسيلة تصوير غيرها .

ومن أجل ذلك كانت القصة من الأساليب الدعوية الناجحة في الدعوة إلى الدين [أو إلى أي فكرة يُراد غرسها في نفوس الناس]. وقد عُرفت القصة في التاريخ القديم الأدبي والديني، بل أن هناك فئة من الناس امتهنت إلقاء القصص حتى عُرِفوا بالقُصاص[6] .

والقرآن الكريم حافل بالكثير من القصص (كقصص الأنبياء ، وذكر أخبار الأولين أمثال عاد وثمود ، وقصة مريم العذراء ، وبلقيس وأهل الكهف ، وكلها قصص حقيقية تجسد واقعاً تاريخياً لا خيال فيه ، يرضي حاجة النفس ويمد الرسالة النبوية بأمثلة من القوة والصبر والعزاء. قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[6].

وقد ارتبط القصص النبوي بالقصص القرآني في كثير من جوانبه وأغراضه ، فإذا كانت القصة أحد أسلحة القرآن الكريم في الهداية والإرشاد ، فقد استخدمها النبي φ أيضاً لذات الغرض، وذلك لمعرفته التامة بمدى حب العرب للقصص ومدى تأثرهم به . فكانت القصة الهادفة إحدى وسائل النبي φ في الإقناع والتأثير. ويمكن تسمية القصة عند الرسول φ بالأقصوصة ؛ لأن علماء هذا الفن يسمي القصة القصيرة بالأقصوصة، لاقتصارها على حادثة معينة لا عدة حوادث ، أما القصة فتتسع إلى جوانب أرحب وأفسح[6].

ومثال الأقصوصة قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال :

بينما ثلاثةُ نفرٍ (يمشون أخذهم المطرُ فأووا إلى غارٍ في جبلٍ فانحطَّت على فمِ غارِهم صخرةٌ من الجبلِ فانطبقت عليهم فقال بعضُهم لبعضٍ انظروا أعمالاً عملتموها صالحةً للهِ فادعوا الله لعلَّه يفرِّجُها عنكم قال أحدُهم اللَّهمَّ إنَّه كان لي والدانِ شيخانِ كبيرانِ ولي صبيةٌ صغارٌ كنتُ أرعى عليهم فإذا رحتُ فبدأتُ بوالديَّ أسقيهما قبل بني وإنِّي استأخرتُ ذات يومٍ فلم آتِ حتَّى أمسيتُ فوجدتُهما ناما فحلَبتُ كما كنتُ أحلبُ فقمتُ عند رؤوسِهما أكرهُ أن أوقظَهما وأكرهُ أن أسقيَ الصبيةَ والصبيةُ يتضاغون عند قدميَّ حتَّى طلع الفجرُ فإن كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُه ابتغاءَ وجهِك ففرِّج لنا فرجةً نرى منها السَّماءَ ففرج اللَّهُ فرأوا السَّماءَ وقال الآخرُ اللَّهمَّ إنَّها كانت عمِّي أحببتُها كأشدِّ ما يحبُّ الرِّجالُ النِّساءَ فطلبتُ منها فأبت عليَّ حتَّى أتيتُها بمائةِ دينارٍ فبغيتُ حتَّى وجدتُ مائةَ دينارٍ فلمَّا جئتُها بها قالت يا عبدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ ولا تفتحِ الخاتمَ إلَّا بحقِّه فقمتُ فإن كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُه ابتغاءَ وجهِك ففرِّج عنَّا فرجةً ففرج وقال الثَّالثُ اللَّهمَّ إنِّي استأجرتُ أجيرًا بفرقِ أرزٍّ فلمَّا قضى عملَه عرضتُ عليه فرغِب عنه فلم أزل أزرعُه حتَّى جمعتُ منه بقرًا وراعيها فجاءني فقال اتَّقِ اللَّهَ فقلتُ اذهب إلى ذلك البقرِ ورُعاتِها فخذْ فقال اتَّقِ اللَّهَ ولا تستهزئ بي فقلتُ إنِّي لا أستهزئُ بك فخذْ فأخذَه فإن كنتَ تعلمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك ففرِّج ما بقي ففرَّجَ اللَّهُ)[6].

هذه الأقصوصة التقت خيوطها مكونة نسيجاً قوياً متماسكاً، وجانب العبرة يظهر فيها جلياً واضحاً، وهو أن الطاعات تفرِّج الكروب، وأن العمل الصالح ينفع صاحبه في المأزق الحرج .

فهذه القصة ، بصياغتها القوية ، نمط رائع من الأدب ، يؤكد أن الفرج في أرفع مجالاته يلتقي بالدين حين يشيَّد بمبادئ الرحمة ،والعفة، والحق والإنصاف[6] .

وقد تتضاءل الأقصوصة حتى تصبح خبراً قصصياً محدوداً . وهذا النوع كثير في كلام النبوة من نحو قوله φ: (بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثمَّ خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي فنزل البئر فملأ خفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله وإنَّ لنا في البهائم أجراً فقال في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ)[6].

فهذه الأقصوصة تضاءلت حتى كادت تبلغ مبلغ الخبر ، لكنها مع إيجازها تضمنت ما تضمنته الأقصوصة من التشويق والإثارة والتصوير الفني للعواطف ، وفيها عبرة وعظة بوجوب الرحمة حتى للحيوان[6] .

إنَّ قصص النبي φ تضمنت معاني شريفة سامية استهدفت الجانب الدعوي لله وتوحيده، وترسيخ أحكام الشريعة الإسلامية في نفوس المسلمين ، وتربيتها وتهذيبها، وحثها على فعل الخير ، والسمو بها إلى مقامات الفضيلة والنبل البشري ، كما اشتملت على عناصر أخرى كالترغيب والترهيب والمتعة والإثارة ، وقد صاغها النبي φ ببيان عذب ، ولفظ فصيح بليغ .

ج) التصوير بالموازنة :

الموازنة أسلوب كثير الورود في الحديث الشريف ، وهو أسلوب يجمع بين الإمتاع والإقناع، أما الإمتاع فلأن المتلقي يكون أمام صورة تربط بين شيء معروف، وأمر جديد يعرفه ، وأما الإقناع فلأن الموازنة تجعل الإنسان يأخذ بالرأي يدل عليه الدليل .

ومن أمثلة ذلك في الحديث النبوي الشريف :

عن المستورد بن شداد قال : قال رسول الله φ: (ما الدنيا في الآخرة إلاَّ مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه وأشار يحيى في السبابة - فلينظر بم ترجع ؟)[6].

الموازنة هنا بين الدنيا والأخرة ، فالدنيا شأنها ضئيل ، فهي بالنسبة للآخرة مثل ما يعلق بالسبابة إذا أُدخلت البحر[6] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله φ قال :

(ما من مولودٍ يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، وينصِّرانه ، كما تُنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها)[6].

التربية هي التي تفسد الفطرة ، فالناس كالإبل في سلامتها وأصحابها هم الذين يجدعونها ، فالأب يُربي ابنه على دينه ومذهبه وطبعه ، فينشأ الابن على دين أبويه . فتهويد الأبوين لابنهما أو تنصيرهما له ، هو تشويه وإفساد للفطرة[6] .

وفي تشبيه المولود حين يولد على الفطرة ثم يغيره بعد ذلك أبواه ، بالبهيمة التي تولد تامة لا جدع فيها ولا وسم، ثم تجدع بعد ذلك ويغير خلقها، صورة تمثيلية رائعة زادت المعنى بياناً ووضوحاً .

ويوازن النبي φ بين الرجل في حالين في هذا الحديث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله φ قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة)[6].

أي أن الرجل في الدنيا سمين عظيم ، وحقيقته فارغة ؛ لأنه خلا من الإيمان، فهو عند الله شيء حقير لا يزن جناح بعوضة[6] .

د) التصوير بالموسيقى :

الموسيقى من العناصر الرئيسية في التصوير، وهي تنبع من نظم العبارة ، ومن العلاقات المتشابكة بين الألفاظ ، ومن تآلف عناصر الشكل والمضمون ، ومن التيار العاطفي الذي يربط بين نفس المتكلّم وتعبيره الحسي .

والموسيقى يدركها الشخص بوجدانه وإحساسه ، قبل أن يدرك عناصرها وجزئياتها . والكلمة الواحدة لا تصنع الموسيقى في النص ، إلا بعد انضمامها مع أخواتها في النظم .

وقد كان الرسول φ يتميز بقدرة عالية في اختيار الكلمات ذات الجرس الموسيقى والإيقاع المحبَّب ، بحيث يتوفر لكل كلمة التعاطف بين المعنى واللفظ ، والانسجام في إيقاع الحروف ، وهذان الأمران لهما أهمية كبيرة في إعطاء الكلمة موسيقاها الحلوة ، فالتعاطف بين المعنى واللفظ يضفي على الكلمة موسيقى معينة تخدم المعنى وتقود إليه ، وهذا أمر واضح في الكلمة الحديثية ، وأمثلته كثيرة منها :

(إنَّ الله يلقي كلمة يرفع بها درجات المؤمن في الغابر)[6]. إن موسيقى هذه الكلمة ساعدت على تصوير المعنى وتقريبه ، وتكرار المقطع في الفعل (يغرغر) نقل إحساس الحركة الشاقة المضنية في خروج الروح[6] .

فالتتابع الصوتي إذن في لفظة (يغرغر) اكسبها إثارة في استيحاء الموقف الذي عبَّرت عنه وتصوير صعوبته بصورة واضحة ، وفي مثل هذا التكرار الموحي باستشعار الموقف يقول ابن جني*: "لما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدَّث به ، وهو تكرير الفعل ،كما جعلوا تقطيعه في نحو صرصر وحقحق دليلاً على تقطيعه"[6].

وتستشعر مرونة الموسيقى في التصوير في كلمات هذا الحديث :

عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:(اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ)[6].

إنَّ موسيقى الجملة في هذا الحديث تنساب على طرف اللسان ، وتستمتع بها الأذن، وكأن هذا الكلام موزون، لا يمكن أن تنقل كلمة عن موضعها ؛ إذ يؤدي ذلك إلى اختلال انسياب الإيقاع في مجراه ، وهذا الانسياب الموسيقى راجع إلى تصويره للمعنى ، إذ يبدأ الحديث بفعل الأمر الحاسم القاطع (اتّق الله)، ثم نحس في عبارة (حيثما كنت) الاتساع المكاني والزماني معاً ،

وتزداد نبرة الإيقاع سرعة حين يُطلب من الإنسان محو الإساءة بالحسنة، ثم يكون هذا الأمر الهادي الإيقاع باستخدام الفعل (خالق) والمجانسة بينه وبين (الخلق)[6].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه ، فمعتقها أو موبقها) [6].

في هذا طاقة موسيقية ضخمة، نشأت من التقابل الواضح بين الجمل ، فقوله (الطهور شطر الإيمان)، يقابل (الحمد لله تملأ الميزان) وكذلك الجملة الأولى يستطيع أن يوزع المتكلم إلقاءها بين (الطهور) و(شطر الإيمان) ، وفي قوله (القرآن حجة لك أو عليك) تقابل عجيب .

والجملة الأخيرة (كل الناس يغدوا فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها) أي منهم من يعتقها من النار بفعل الصالحات ، ومنهم من يوبقها في النار بفعل المنكرات[6] .

ولموسيقى الحديث ألوان مختلفة ، تختلف باختلاف الغرض . ففي الذكر الذي يُسن أن يقرأه المسلم قبل أن ينام نجد اللحن الهادىء الخفيف:

عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ: إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت . وبنبيك الذي أرسلت . فإنك إن متَّ في ليلتك متَّ على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت أجرًا) [6].

إنها موسيقى تتناسب وجوَّ النوم الهادىء الذي يهيىء الجوَّ المأنوس المأمون الذي يشعر صاحبه بالطُمأنينة لأنه يسلم نفسه إلى الله ، ولأنه يتوجَّه شطره ويلجأ إليه . ما أشبه هذا الحديث باللحن الحلو الذي يريح الأعصاب ويمهد للنوم . أضف إلى ذلك ترديد كلمة (إليك) التي هي بمثابة قفل موسيقي ينهي الجملة. وكذلك فإن الدعاء ختم بمخاطبة الله سبحانه وتعالى بصيغة المفرد وبأفعال تنتهي بالتاء المهموسة التي تلائم جوَّ الاسترسال في النَّوم[6].

وفي الزجر تكون موسيقى الحديث ميَّالة إلى القُوَّة والعُنف ، فمن ذلك الحديث الآتي :

عن أبي ذر قال: قلت : يا رسول الله ! ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي. ثم قال (يا أبا ذر ! إنك ضعيف . وإنها أمانة . وإنها يوم القيامة خزي و ندامة . إلا من أخذها بحقها وأدَّى الذي عليه فيها)[6].

أسلوب ميَّال إلى العُنف الممزوج بالإشفاق ، يقول: إنك ضعيف . وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة خزيٌ و ندامة)، الموسيقى المنبعثة منها ذات إيقاع فيه عنف واضح[6].

إن لغة الحديث تسترعى وجدان القارئ والسامع بموسيقاها، وروعة نظمها الذي يؤلف صوراً بديعة . ولا يعتمد الحديث على الكلمات المفردة في جمال إيقاعه ، فالكلمة قد تكون مقبولة

في ذاتها ، ولكن عندما تجتمع مع كلمات أُخر يحصل تنافر بينها ، واستثقال في النطق، وكراهة في السمع ، لكن كلمات الحديث النبوي يحلو جرسها ، وتزيد عذوبتها، ويحسن إيقاعها ، عند اجتماع الكلمة الواحدة مع أخواتها في النظم[6] .

والحديث عن موسيقى الحديث النبوي يقود إلى الحديث عن السجع الذي كان سمة النثر الفني في ذلك الزمان، وقد عرّفه ابن الأثير بأنه "هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد "[6].

فموسيقى الحديث كانت تعتمد أحياناً على السجع ، وقد كره الرسول ρ السجع الذي يشبه سجع الكهان ونهى عنه، وأنكره ، فقال لرجل وقد حاول تقليده :(أَسجعٌ كسجعِ الأعرابِ ؟)[6] وفي رواية أخرى (إنما هذا من إخوانِ الكهان) من أجل سجعه الذي سجع .

لأن سجع الكهان سجعاً ثقيلاً يأباه الذوق، وتنفر منه النفس ، وتكثر فيه الكلمات الحوشية الغريبة ، ويكون المعنى فيه تابعاً اللفظ ، فهو سجع مقصود ، تظهر فيه الصنعة ، وتغيب عنه الفطرة ، غامض المعاني ، يعتمد على الإيقاع الرنان للألفاظ ، الموحي بألوان من المشاعر الغامضة ، يبتغي الكاهن بذلك خداع الناس وإيهامهم أنهم يستمعون من خلال كلامه إلى طلسمات الشياطين[6] .

وذلك نحو كلام أحد الكهان عندما سئله قومه عن شيء خبأوه له ، وكان رأس جرادة، قال: خبأتم لي شيئا طار فسطع ، فتصوب فوقع، في الأرض منه بقع، هو شئ طار فاستطار ذو ذنب جرار، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار"[6]

لذلك كره النبي ρسجع الكهان وأنكره لأنه أداة للباطل والتدجيل ، وإسفاف في الكلام، ولكنه لم يكره السجع على الإطلاق . بل جاء منه بالبديع الرائع فكان آية الجودة والجمال[6].

أمثلة تثبت أثر موسيقى السجع في الأحاديث :

عن عبد الله بن سلام قال: سمعت رسول الله ρ يقول: (يا أيُّها النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ ، وأَطْعِمُوا الطَّعامَ ، وصِلُوا الأَرْحامَ ، وصَلُّوا باللَّيْلِ ، والنَّاسُ نِيامٌ ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ)[6].

استخدم الحديث كلمات مأنوسة ، وجمل متناسقة ، وسجع لم يجر اللفظ فيه على المعنى ، وفيه تكلفاً ولا تعسفاً ، وإنما جاء تابعاً للمعنى .

وعن زيد بن أرقم قال: (كانَ رسولُ اللهِ ρ يقولُ: اللَّهمَّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها أنتَ وليُّها ومولاها. اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ ومن قلبٍ لا يخشعُ ، ومن نفسٍ لا تشبعُ ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لها)[6].

فالسجع في هذا الحديث لم يكن مقصوداً لذاته ، ومما يؤكد ذلك الجملة الأخيرة ، فقد جاء فيها (ومن دعوة لا يستجاب لها) وفي حرف المد هذا الذي تنتهي به الجملة مجال لأن يستريح من يلقي الحديث بأن يدع صوته ممتداً [6].

هذه نماذج لبعض الأحاديث النبوية التي اعتمدت موسيقاها على السجع، غير أن أكثر الأحاديث النبوية ليس فيها سجع ، وذلك لأن الالتزام بالإتيان به يوضع المرء في تكلُّف وتعسف .

هـ) التصوير بالإشارة والحركة والرسم :

هو لون من ألوان التصوير الذي يوضح الفكرة ويبين المراد ، وقد تحدَّث الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عن الإشارة وأعطاها عناية خاصة بعد اللفظ والمعنى ، فقال ناقلاً عن جهابزة الألفاظ ونقَّاد المعاني :

" وعلى قدر وضوح الدَّلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصاص، ودِقة المدْخَل ، يكون إظهارُ المعنى . وكلما كانت الدَّلالةُ أوضح ، وأفصح ، وكانت الإشارةُ أبْيَنَ وأنورَ ، كان أنفع وأنجع "[6].

فجعل الجاحظُ صواب الإشارة من المعينات التي تعين على إظهار المعنى ؛ إذا ما استخدمت في مكانها المناسب وأبانت عن معناها المسوقة له .

كما جعل جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ ، وغير لفظ خمسة أشياء ، لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد[6] ، ثم الخط[6] ثم الحال التي تسمى نِصْبَه. والنِّصْبة هي الحال الدالة[6]، التي تقوم مقام تلك الأصناف. وذكر بأن لكل واحدة من هذه الدلالات صورة تختلف عن صورة صاحبتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهي التي تكشف عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير ، وعن ما يكون منها لغواً بهرجاً ، وساقطاً مطروحاً [6].

وفي كلام الجاحظ هنا تنبيه لأهمية هذه الدلالات ، لارتباطها بتوضيح المعنى . ثم عدَّد أنواع الإشارات فقال :

" فأما الإشارة ، فباليد ، وبالرأس ، وبالعين ، والحاجب ، والمنكب ، إذا تباعد الشخصان ، وبالثوب وبالسيف"[6].

ثم جعل الإشارة واللفظ شريكان في عملية إيصال المعنى ، فهي ترجمان عنه، وكثيراً ما تنوب عن اللفظ ، وتغني عن الخط[6].

ومن هنا تتضح أهمية الإشارة في إبراز صورة المعنى ، شأنها في ذلك شأن اللفظ ، والمعنى ، والخط .

وقد استخدم النبي φ التصوير بالإشارة والحركة والرسم لذات الغرض ، وهو توضيح المعنى ، فكانت لحركته وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء ، فحركته معبّرة تلفت النظر نوتّه الغافل وتعين على الحفظ والتذكر .

ومن الإشارات التي استخدمها النبي φ :-

استخدام الإشارة بالأصابع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله φ: (كافلُ اليتيمِ له أو لغيرِه، أنا وهو كهاتينِ في الجنةِ . وأشار مالكٌ بالسبابةِ والوسطَى) [6].

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله φ(من عال جاريتَيْن حتَّى تبلغا ، جاء يومَ القيامةِ أنا وهو . وضمَّ أصابِعَه) [6].

إن القيام بأمور اليتيم والبنات عمل يرشح صاحبه ليكون مع رسول الله φ في الجنة. وقد استخدم عليه الصلاة والسلام الإشارة بأصبعيه ليدل على أن من يفعل ذلك يكون مرافقاً له في الجنة [6] .

وقد استخدم أيضاً الإشارة بأصابع يده للدلالة على الأرقام ، فعندما أراد أن يقرر أن الشهر القمري يأتي مرة تسعاً وعشرين ، ومرة ثلاثين ، استخدم من أجل ذلك الإشارة بالأصابع . فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي φ:

(إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ الشهرُ هكذا وهكذا وهكذا" وعقدَ الإبهامَ في الثالثةِ "والشهرُ هكذا وهكذا وهكذا " يعني تمامَ ثلاثينَ) [6].

وقد شبك أصابعه للدلالة على معنى القوة والترابط :

عن أبي موسى قال : قال رسول الله φ:

(المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ ، يشدُّ بعضُه بعضًا . وشبّك بين أصابعِه)[6].

صوَّر النبي φ المعنى بإشارة تشبيك الأصابع للدلالة على القوة والتماسك وتقوية بعضهم لبعض[6].

هذه بعض الأحاديث النبوية التي استخدم فيها النبي φ الإشارة بالأصابع لتصوير المعنى .

استخدام الحركة :

ومن نماذج الحديث التي استخدم فيها النبي φ الإشارة بالحركة (تغيير جلسته):

عن أبي بكرة قال : قال النبي φ: (ألا أنبّئُكم بأكبرِ الكبائرِ ثلاثًا ، قالوا: بلَى يا رسولَ اللهِ ، قال : الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدينِ وجلَس وكان متكئًا ، فقال ألا وقولُ الزُّورِ . قال : فما زال يكرِّرُها حتَّى قلنا : ليتَه يَسكتُ)[6].

استخدام الرسم :

وهو أسلوب تعليمي يقرّب المعنى ويبيّنه ، استخدمه الرسول φ في توضيح الكثير من المعاني. ومثال ذلك تصوير الرسول φ لمعنى الأمل والأجل :

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال خَطَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خطًّا في الوَسَطِ مُرَبَّعًا وخَطَّ خُطَطًا صِغارًا إلى هذا الذي في الوَسَطِ من جانِبِهِ الذي في الوَسَطِ ، وقال: (هذا الإنْسانُ ، وهذا أجَلُهُ مُحيطٌ به أوْ: قَدْ أحاطَ بِهِ - وهذا الذي هو في الوَسَطِ الخُطَطُ الصِّغارُ الأعْراضُ ، فإنْ أخْطَأهُ هذا نَهَشَهُ هذا، وإنْ أخْطَأهُ هذا نَهَشَهُ هذا)[6].

استخدام الحصى :

استخدم النبي φ الحصى مع الإشارة في تصوير موضوع الأجل والأمل أيضاً ، فرمى حصاتين ، إحداهما قريبة والأخرى بعيدة ، ثم شرح حقيقتهما كما في الحديث الآتي :

أخبرنا عبد الله بن بُرَيْدة ، عن أبيه قال : قال النبي φ: (أتَدْرُونَ ما هذه وما هذه؟ مَثَلُ بني آدَمَ وهذا الأمَلُ يَخْتَلِجُهُ دُونَ ذا ، فإذا أصابَ هذا مَرَقَ هذا ، وإذا أصابَ هذا مَرَقَ هذا) قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ ، قال: (هذا الإنسانُ وهذا الأجَلُ)[6].

وفي الحديث تحذير للمرء ودعوة إلى أن يحسب حساباً للمنية التي تنتظره [6] .

و) التصوير باستخدام الصور البيانية في الحديث النبوي :

الحديث النبوي الشريف زاخرٌ بالصور البيانية التي تستهدف توضيح المعنى وتقريبه للسامعين، في الوقت الذي يسترعى الأسماع بما فيه من جاذبية وتلوين . ومن هذا التصوير ما يلي:

التصوير بالتشبيه:

في الحديث النبوي الكثير من التشبيهات، أتت في موضوعات مختلفة كالغيبيات والإنسان والحيوان ، وبعض المعاني . وتمتاز هذه التشبيهات بالوضوح ، والدقة ، والواقعية والجِدَّة ، وفيما يلي أمثلة لهذه التشبيهات :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله φ يقول:

(يدخلُ من أمتي زُمرةٌ هم سبعونَ ألفًا . تضيءُ وجوهُهُم إضاءةَ القمرِ ليلةَ البدرِ . قال أبو هريرة : فقام عكَّاشةُ بنُ محصنٍ الأسديّ ، يرفعُ نمرةً عليهِ . فقال : يا رسولَ اللهِ ! ادعُ اللهَ أنْ يجعلَني منهُم . فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: اللَّهُمَّ! اجعلْهُ منهُم ، ثمَّ قام رجلٌ من الأنصارِ فقال : يا رسولَ اللهِ ! ادعُ اللهَ أن يجعلَني منهُم . فقال رسول الله صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ سبقكَ بها عُكَّاشَةُ)[6] .

وهذا إخبار بأمر غيبي يبيّن حالة طائفة معينة من أمة سيدنا محمد φ يدخلون الجنة تضيئ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر[6] .

وفي الحديث تشبيه بليغ جميل، حُذِفَت فيه الأداة ووجه الشبه، حيثُ شبَّهَ الضوء المنبعث من وجوه هذه الطائفة ، بضوء القمر ليلة البدر، في الوضاءة والإشراق.

وعن أبي موسى عن النبي φ قال: (مثل الجليس الصالح والسوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة)[6].

التشبيه هنا محكم إلى أبعد درجات الإحكام ، فالجليس يؤثر على جليسه ، ويتفاوت هذا التأثير قوة وضعفاً ، ولكنه لا ينعدم ، فحامل المسك إما أن يحذيك أي (يجود عليك من مسكه) وإما أن يكون تاجراً فتشتري منه ، فإن لم يحدث الأمران، تجد منه الريح الطيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة خبيثة .

ولكلمة (نافخ الكير) ظلال منفرة ، فهو نافخ ، وكلامه لا يزيد عن النَّفخ ، والجليس النافخ يجعل الصدر والقلب في ضيق[6] .

وهذا بيان للمسلم كيف يختار أصحابه وجلساءه، أوردها φ في صورة تشبيه جميلة، فصارت عالقة في الأذهان راسخة .

ومن التشبيهات الرائعة في وصف المؤمن ، ما روي عن ابن عمرو قال: قال رسول الله φ: (مثل المؤمن مثل النحلة : إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عود نخر لم تكسره ، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب ، إن نفخت عليها احمرت وإن زنت لم تنقص)[6].

المؤمن لا يأكل إلا طيباً ، ولا يسمع إلا طيباً ولا يبصر إلا طيباً ، ولا يقول ولا يعمل إلا طيباً ، فهو مثل النحلة لا تأكل إلا أطايب الأكل من الحلو والزهر والثمر، وإذا وضعت لا تضع إلا العسل الذي هو شفاء للناس ، كما أنها خفيفة الوزن .. فلو اعتمدت على عود نخر لم تكسره .

ولم يشر φ إلى أن بإمكانها لسع من يعتدي عليها، وإذاقته الشيئ الموجع المؤلم؛ إيثاراً لبقاء جو الحديث المحبَّب الطيب .

ثم شبَّه الرسول φ المؤمن تشبيهاً آخر فقال : إنَّه كسبيكة الذهب ، لا ينقص وزنها، ولا يحول لونها ، إن نفخت عليها زال ما علق بها من غبار ، وظهرت حمراء متوهجة . وهكذا المؤمن، أصيل ، لا تلويه الأحداث ولا تغيره الظروف والنكبات، ولا تعصف به المحن، وإنّما يظل ثابتاً ، راسخاً رسوخ الجبال ، وإن علاه شيء من هذا الغبار وتأثر به فسرعان ما يزول بنفخة يسيرة عليه، ويعود إلى معدنه الحقيقي[6] .

أنظر لحسن التشبيه وروعته ، فتشبيه المؤمن بالنحلة وبالذهب حسن موضعهما ، فالنحلة من المخلوقات النافعة ، ولا تنتفع إلا بالشيء الطيب من الغذاء، وكذلك المؤمن العابد الصادق ينبغي أن يكون كالنحلة في توخيه الحلال الطيب في أمور حياته كلها ، وشبهه أيضاً بمعدن

الذهب الذي هو من أغلى المعادن وأجملها لوناً وبريقاً ، وحفاظاً على هيئته وطبيعته مهما تعاقبت عليه الأزمان ، وأثرّت عليه عوامل الطبيعة ، وعلاه الغبار .

والتشبيهات كثيرة في الحديث الشريف، وكلها تمثّل لوحات وصفية رائعة ممزوجة بالدقة والصدق في الأداء و الجمال في التعبير .

التصوير بالتشخيص والاستعارة :

وهذه الطريقة تعطي الصورة الحيوية التامة ، فهي تجعل المعاني التي لا تقع تحت الحس مباشرة ، والجمادات التي لا حياة فيها ، والحيوانات التي لا تعقل ، تتحول إلى كائنات حية ، تتحرك وتتكلم ، وتستقل بالفكر والتصرُّف[6] .

والتصوير بهذا الأسلوب في البيان النبوي يبلغ الغاية من الجمال والدقة ، ويتسع ويمتد ليشمل أمور الدنيا والدين ، والحياة الحاضرة ، والحياة الخالدة .

وهذا حديث من أحاديث الرسولφ ينقل فيه القيم النفسية ويصورها بطريق الاستعارة، فتبدو مجسدة كأنها كائن حي ملموس ، يسمع ويحس .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله φ عليه وسلم(إنَّ أُحداًجبلٌ يُحبُّنا ونُحبُّه)[6].

هناك الكثير من الأشياء الجامدة، والأماكن ، وغيرها .. ، يرتبط بها الإنسان ارتباط الحب والصداقة كما لو كانت من الأشياء العاقلة ، أو ارتباط البغض والعداوة كما لو كانت ظالمة . وجبل أُحد يقع في المدينة التي أوت الرسول φ ونصرته ، وكانت حامي لرسالته ، وحصناً لدعوته، كما أنه من المعالم البارزة التي أول ما يراها الناس . فانفعل الرسول φعند رؤية الجبل الذي أحسَّ الأمن والسلام بجواره ، واستبشر برؤيته بشاشةً وحباً ، فصوَّره صورة من يحب ، وشخَّصه شخص من يَعِي[6].

فشبه الجبل بالإنسان المحب ، ثم حذف المشبه به (الإنسان) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي (المحبة) على سبيل الاستعارة المكنية .

وعن سعيد بن زيد ،عن النبيφ قال: (أيُّما أرضٍ ميتةً فهي له ، وليس لعِرقٍ ظالمٍ حقٌّ)[6].

شبه الأرض التي لا تنتج ولا فائدة في إصلاحها بالميت من ذوي الأرواح ، أما إذا استصلحت فانتجت وأفادت أشبهت الحي منه.

والجزء الأول من الحديث يصور الأرض في الحالين بصورة الميت والحي ، ليبيّن أن الذي وهبها الحياة بجهده وعرقه أحق أن يستفيد من خيراتها -(إن كانت ملكاً له)- . وهذا التصوير

رسمته صورة الاستعارة المكنية ، فالمشبه به محذوف وهو الحيوان ، وقد أسند وصفان من أوصافه اللازمة إلى المشبه ، وهو الأرض على سبيل التخييل[6] .

ومن الاستعارات الجميلة أيضاً :

عن ابن عمير قال : قال رسول الله ﷺ (إنك ما يسجد لك إلا الوجه)[6] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ورجل تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله..)[6].

صور الحديث الكائن حي ، مستقل بالتصرف، فهي تسجد، وتدري ،وتعرف.

وعن أوس بن أبي أوس قال، قال رسول الله ﷺ (إن الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)[6] جعل الأرض تأكل مثلها مثل أي كائن حي، إنسان كان أو حيوان، ولكن الله حرَّم عليها أجساد الأنبياء ، فلا تأكلها[6].

التصوير بالكنايــة :

هي من أروع الأساليب البيانية التي يُعبَّر بها عن المعنى ، تعبيراً مُلاَّ هادفاً موجزاً، يخفي تحت ظلاله لطائف مراده[6] ، وقد عُرِّفت بأنها: " لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ"[6].

وقد وردت الكناية في الحديث النبوي بصور جميلة منها :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (خالفوا المشركين ألينوا مناكبكم في الصلاة)[6].

عبَّر (بلين المناكب) عن سهولة الانقياد وسرعة الحركة حينما تمس يد المؤمن كتف أخيه، تؤخره ، أو تقدمه ، أو تدعوه لسد فرجة بينهما ، ليكونوا في الصف على نسقٍ واحدٍ كالبنيان المرصوص . كُني عن المعنى العقلي وهو سهولة الانقياد والانتظام بمعنى حسي لطيف وهو (لين المناكب) ليزداد المعنى تقريراً ووضوحاً في الذهن.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ)[6].

صاحب القرن كناية عن موصوف ، وهو اسرافيل عليه السلام ، الملَك المكلَّف بالنفخ، والتقام القرن ، وما وراءه كناية عن صفة التأهب والاهتمام لقرب الموعد (موعد القيامة) ، وهي صورة تخييلية تصور الأمر الشديد الذي يغفل عنه الناس[6] .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله φ (إذا فعلت أمتي خمسة عشر خصلة حل بها البلاء : إذا غنم المغنم دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع)[6].

في الحديث كناية عن فساد الزمان وانتكاس القيم ، وتكبر الناس . والمطيطياء كناية عن التكبر والعجب ، وقد نهى الإسلام عن ذلك ، فالشخص المتكبر يمشي متبختراً ، ويمد يديه ويمط صدره وعنقه ، فتتغير هيئته لتغير إحساسه واعتقاده بأنه أفضل من الناس ، وتسليط شرار الناس على غيرهم كناية عن غلبة الشر على الخير في هذا الزمان[6] .

التصوير بالمجاز المرسل:

" المجاز المرسل هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة مع القرينة المانعة من إرادة المعنى الوضعي"[6] .

وهو أسلوب تصويري يفيد المعاني تقريراً ويزيدها تأكيداً . فضلاً عن الإيجاز وإعطاء المضمون في ثوب خيالي ضافٍ شأن جميع المجازات .

وهو من الأساليب التي جاءت في الحديث النبوي ناصعة بارعةً ، وبطبع موهوب وفطرة سليمة وتهيئة إلهية[6] .

ومن أمثلة المجاز المرسل في الحديث النبوي :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال ، وهو على المنبرِ ، وذكرَ الصدقةَ والتَّعفُّفَ والمسألةَ (اليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى، فاليدُ العليا هي المنفقةُ والسفلى هي السائلةُ)[6].

ومعنى الحديث أن الرسول φ يريد من المؤمن أن يكون عزيز النفس أبي القلب ، يكسب قوته بكدِّه وعرقه ، ويتعفف ، ولا يمد يده يسأل الناس أعطوه أو منعوه . والحديث مع ذلك كله يحثُّ على الصدقة ، ويحض على العطاء ، ويبيِّن مضاعفة الجزاء عند الله للمتصدقين ،على من يجوز عليهم الصدقة ، من الفقراء ، والمحتاجين، وغيرهم مما ذكرهم القرآن الكريم.

وفي الحديث تصوير لحال المعطي والآخذ ، فيصوِّر يداً ممتدة للسؤال، ذليلة، ضارعة، منتظرة ، نازلة ، محتشمة، وهي (اليد السفلى) ، ويداً ذاهية بالعطاء ، عزيزة ، عاذرة مرضية ، عالية منشرحة ، وهي (اليد العليا) .

ولم يقصد بالحديث (اليد) في حدِّ ذاتها ، وإنما المقصود (صاحب اليد)،وعلى ذلك يكون المجاز في كلمة (اليد) وهي الجزء، وإرادة صاحبها وهو (الكل)، فالعلاقة بينهما الجزئية[6].

ويلاحظ في وصفه صلى الله عليه وسلم لليد المنفقة بـ"العليا "، ارتفاع مكان ومكانة معاً وفيه شرف عظيم لأهل الفضل والعطاء .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال:

(تخلَّف عنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفرَةٍ سافَرْناها، فأدرَكنا وقد أرهقَتْنا الصلاةُ - ونحن نتوضَّأُ، فجعَلْنا نمسَحُ على أرجلِنا، فنادى بأعلى صوتِهِ: للأعقابِ من النارِ مرتينِ أو ثلاثًا)[6].

يُحذِّر النبي φ من التقصير في إسباغ الوضوء على كل الأعضاء ، لأنه لا صلاة لمن لا وضوء له، فتهدَّد المقصِّرين بالويل وهو أشدّ العذاب ، ولكنه لم يجعل الويل صراحة للمقصِّرين بأنفسهم ، وا ٍنما جعله لأجزاء منهم ، وهم " الأعقاب".

والتعبير هنا بالمجاز المرسل يصور تركيز العذاب على جزء معين ، ويخيله منصباً عليه وحده ، لينبِّه الناس إلى الاهتمام والعناية بهذا الجزء عند الوضوء ، لأنه في مكان قد لا يحيطه البصر ، مما يؤدي لعدم وصول الماء إليه ، ومن ثم لا تصل إليه الطهارة [6].

فالمجاز في كلمة (الأعقاب) حيث ذكر الجزء (الأعقاب) وأراد (كل الجسم) فالعلاقة جزئية .

وللمجاز المرسل علاقات كثيرة سيتم التعرض لها في الفصول القادمة .

المبحث الرابع
التعبير وطرق الأداء في الحديث النبوي الشريف

لقد تمت الإشارة في المبحث الأول من هذا البحث إلى طريقة منطق الرسول φ، وكيف كان لطبيعة خلقه وتكوينه ووِمهم ٌ في طريقة نطقه وأداءه للحديث ، فقد كان يعطي الكلام ما يستحق من اللهجة ، حتى أن ما يختلج في صدره كان يبدو على وجهه . فعن جابر بن عبد الله قال :(كان رسول ُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم َ إذا خطب احمرَّت ْ ينلهه ، وعلا صوتُه واشتدَّ غضبُه. حتى كأنه مُ نذِ رُ جيشٍ ، يقول : صبَّحكومسَّاكم)[6].

فكان ينفعل بكلامه ، فيبتسم إذا كان في حديثه ما يوجب ذلك ، ويبكي إذا كان في كلامه ما يوجب ذلك .

وكان لشخصية النبي φ الجذابة أثر كبير في كون الأداء قد بلغ الذروة ، فقد ورد في وصفه عليه الصلاة والسلام أن له هيبة وجلالاً ، فإذا تكلَّم بين أصحابه كانوا كأن على رؤسهم الطير[6].

الطرق التي استخدمها النبي -عليه الصلاة والسلام- في أداء الحديث النبوي الشريف :

بعث النبي φ معلِّماً ، ومربيًّاً ، ومعلِّماً ، فاستخدم لذلك عدة طرق ومعينات لتساعده على شرح وايصال تعاليم الدين الإسلامي ، وتقريبها إلى الأذهان لتكون واضحة مفهومة، لا غموض فيها ولا لبس ولا شبهة ، حتى تؤدي الغاية المرجوة.

ومن أهم هذه الطرق :

التكرار– الحوار – ضرب الأمثال– القصة– الحركة - الإشارة – الرسم – استخدام الحصى.

أسلوب التكرار :

التكرار لغةً :

ٌ : الرجوع على الشيء الكومنه التَّكْرَارُ . وكَرَّرْتُ الشيء تَكْرِيراً وتَكْرَاراً . والكرُّ : مصدر كرَّ عليه يَكُرُّ كَرَّاً وكُروراً وتَكْراراً :وكَطَوَّفَ الشيء وكَرَّكَره : أعاده مرة بعد أخرى[6] .

التكرار اصطلاحاً :

هو " دلالة اللفظ على المعنى مرددا ً"[6]

أو : إعادة الكلمة بلفظها ومعناها في القول مرتين فصاعداً لنكتة .

والتكرار ليس غريباً على العرب ، وإنما هو سنة بيانية من سننهم ، جاء عليها القرآن الكريم والحديث الشريف .

قال ابن قتيبة[6] " وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرائق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار[6] .

والتكرار منه ما يأتي لفائدة ومنه ما يأتي لغير فائدة ، فالذي يأتي لفائدة يأتي في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره ، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على عظم ملالشيء ، الذي كُرِّر فيه الكلام،

والإشعار بفخامة شأنه ، وعلو قدره ، أو الدلالة على حقارته والإعلام بهوانه واتضاعه . والتكرار غير المفيد لا يأتي في الكلام إلا عبثاً وخطَلاً من غير حاجة "[6].

ويعتبر التكرار المفيد جزءاً من الإطنابالذي عُرِّف بأنه "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة "- فيقال حينئذ إنَّ كل تكرير يأتي لفائدة فهو إطناب ، وليس كلُّ إطنابٍ تكريراً يأتي لفائدة"[6] .

والتكرار أيضاً يعتبر ضرباً من ضروب التوكيد ، حيث يقول ابن جني[6] :

"اعلم أنَّ العرب إذا أرادت المعنى مكَّنته واحتاطت له ، فمن ذلك التوكيد، وهو على ضربين: أحدهما تكرير الأول بلفظه وهو نحو قولك : قام زيد ، قام زيد ، وضربت زيداً ضربت... والثاني : تكرير الأول بمعناه وهو على ضربين : أحدهما للإحاطة والعموم ، والآخر للتثبيت والتمكين، الأول كقولنا : قام القوم كلهم ، ورأيتهم أجمعين..، والثاني نحو قولك: قام زيد نفسه ورأيته نفسه"[6] .

ومن كلامجني يُستكشف قسمان من التكرار، أحدهما لفظي، والآخر معنوي.

وقد استخدم الرسول φ التكرار في الحديث النبوي الشريف كطريقة من طرق الأداء ، حيث يأتي أسلوب التكرار بصوره المتعددة وتوزيعاته المتنوعة في جسد الخطاب النبوي على رأس الأساليب التي انتقاها الرسول φ لإقناع المتلقي، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي φ ذا تكلَّم بكلمةٍ (أعادها ثلاثًا، حتى تُفهَم عنه ، وإذا أتَى علَى قَومٍ فسلَّم عليهِم، سلَّم عليهم ثلاثًا)[6].

ولعل استخدام هذا الأسلوب يتناسب مع الهدف التعليمي الراقي الذي كان رسول الله φ ينشده في دعوته ، ولعله ينسجم مع مراعاة الفروق الفردية في التلقي ، فرسول الله φ يخاطب الناس على قدر عقولهم . والفكرة الواحدة تتلقفها الأذهان بسرعات متفاوته وتترسخ دلالاتها في العقول بتدرج ، بحيث يحمل الدال دلالة ، ويضيف الدال المكرر دلالة أخرى .

والتكرار أسلوب يرتبط بالنظم، يشبع الفكرة ويقويها في ذهن المتلقي إذا استخدم استخداماً ذكياً مناسباً لمقام الخطابكما يولد إيقاعاً خارجياً لافتاً في النص شعراً كان أو نثراً ليسهل على الأذهان استرجاعه واستذكاره ، فالعقول تصنِّف المتماثلات كما تسترجعها حين تطلبها خاصة إذا اتخذت أماكن مخصصة في النص. ولذا لا بد من دراسته في سياقه الكلي الذي يرد فيه.

أما من الناحية النفسية للمتلقي فإن تكرار القول لا يقل تأثيراً في إثارة الانفعال وتكوين العواطف عن تكرار الفعل ، بل إن تكرار القول حافز هام لحدوث الفعل . هذا بالإضافة إلى الحديث عن التكرار ألا شعوري في القول الذي يعكس نفسية المتكلِّم ومشاعره . وكلما تشابهت البنية اللغوية فإنها تُمثِّل بنية نفسية متشابهة ومنسجمة تهدف إلى تبليغ الرسالة عن طريق الإعادة التي تكون تكراراً متجاوراً أو متباعداً .

وهكذا فإن استخدام الرسول φ لأسلوب التكرار يعد تقنية خطابية ينفذ بها إلى عقل المتلقي وقلبه ، فالتكرار من أساليب التوكيد التي استخدمها النبي φ لتبليغ الرسالة وتعليم الدين، وهو يُجسِّد

حرصه على أن تصل كلمته واضحة جلية إلى الأذهان كافة . وهو مأمور ببيان الرسالة وتبليغها بالطرائق التي تنسجم وتتناغم مع القلوب والعقول[6].

والتكرار كما ذكر آنفاً نوعان : تكرار باللفظ والمعنى ، وتكرار بالمعنى فقط. وهو كذلك في الحديث النبوي .

1/التكرار باللفظ :

والمقصود به إعادة اللفظ نفسه أو العبارة نفسها لدواعٍ مختلفة . وهو عدة أنواع ، فقد يكون المكرر حرفاً واحداً في كلمة واحدة ، وقد يكون كلمة أو عبارة أو صيغة ، أو أداة .

ومن أمثلة تكرار الحرف الواحد في الكلمة الواحدة :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما (أن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دخل على أمِّ السائبِ أو أمِّ المسيَّبِ ، فقال " مالَكِ ؟ يا أمَّ السائبِ ! أو يا أمَّ المسيَّبِ ! تُزَفْزِفينَ ؟ " قالت : الحمَّى . لا بارك اللهُ فيها . فقال " لا تسبِّي الحمَّى . فإنها تُذهِبُ خطايا بني آدمَ كما يُذهبُ الكيرُ خبثَ الحديدِ ")[6].

الفعل " تزفزفين " وما به من تكرار للحروف يرسم صورة فكي أم السائب رضي الله عنها ووجها في حركة سريعة قسرية تدل على نوع المرض الذي أصابها وهو الحمى ، ومن المعروف أن الحمى تجعل الجسم يرتجف ، وقد يصحب ارتجاف الجسم ارتجافٌ في الصوت وإحداث ذبذبة فيه غير مقصودة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يعرف مرض أم السائب من أعراضها، ولكنه تلطف سائلاً ليؤنسها بحديثه أولاً ، وليستدرجها لراحة نفسية ببث الشكوى ، ثم ليعطها ثانياً طاقة من الأمل في جزاء الصبر على قضاء الله بما يصيب المؤمن من المرض . وهي طريقة المعلم الحكيم المعصوم ، يتمكن بها من قلوب الناس.

كذلك نجد هذا النوع مع السفرةِ الكرامِ البررةِ ، والذي يقرأ القرآنَ ويتتعتعُ فيه ، وهو عليه شاقٌّ ، له أجرانِ . وفي روايةٍ : والذي يقرأُ وهو يشتدُّ عليه له أجرانِ)[6] .

فإن الفعل " يتتعتع " بما فيه من التكرار والتضعيف يرسم صورة اللسان وهو يحاول النطق في معاناة شديدة ومشقة [6].

ومن تكرار الكلمة الواحدة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: مَن أَحَقُّ الناسِ بحسنِ صحابتي ؟ قال " أمُّك " قال : ثم من ؟ قال " ثم أمُّكَ " قال : ثم من ؟ قال " ثم أمُّكَ " قال : ثم من ؟ قال " ثم أبوك")[6].

كرر الرسول ρ كلمة " أمك" في هذا الحديث تأكيداً لحق الأمومة ، تأكيداً لا يتأتى معه غبن، وإذا كان الله سبحانه وتعالى ساوى بين حقوق الوالدين في خفض جناح الذل من الرحمة والإحسان

إليهما ، وعدم التأفف والخروج عليهما ، فقد خص الأم بنصيب أكبر من الإحسان ، والمكافأة بأعظم البر والحنان لما تجده من مشقة وتعب في حملها ووضعها وتربيتها لأبنائها.

وكان التكرار لكلمة "الأم" في هذا الحديث تصعيداً لواجب الأم وترغيباً في الالتزام بحقها إكراماً لها[6].

وقد يكون المكرر عبارة ، وذلك نحو :

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، متكئاً فجلس فقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور . فما زال يقولها ، حتى قلت : لا يسكت) [6].

لقد كرر الرسول ﷺ عبارة "ألا وقول الزور" للتشويق وبعث الاهتمام والتنبيه لخطورة قول الزور وشهادة الزور ، والتي تعتبر من أكبر الكبائر ، شأنها في ذلك شأن الإشراك بالله وعقوق الوالدين .

وقد صوَّر النبي ﷺ خطور هذه الكبيرة بشدة انفعاله وانتقاله المفاجئ من حال الإتكاء إلى حال الجلوس ، ليس تروحياً من وضعه الأول ، ولكن ليكون نذيراً بأن شيئاً خطيراً سيحدث .

ثم من كثرة تكرار الرسول ﷺ لهذه العبارة كادت قلوب الصحابة تسقط فزعاً وتنخلع اشفاقاً على أنفسهم وعلى إمامهم وحبيبهم عليه الصلاة والسلام ، فلم يتنبَّهوا لعدد تكرارها ، فيقول الراوي : "حتى قلت لا يسكت" وفي رواية أخرى "حتى قلنا ليته سكت ". فقد كان سكوته ﷺ متمدِّياً محبوباً ، يشغل نفوسهم إشفاقاً عليه من انفعاله وغضبه[6] .

فالتكرار هنا طريقة من طرق الأداء ، يرمي النبي ﷺ من ورائها إلى بيان التشديد في تحريم قول الزور ، وقد كرر فيها جملة كاملة .

2/ تكرار المعنى :

وهو تكرار المعنى بألفاظ مختلفة .

وقد بيَّن ابن قتيبة الفائدة من تكرار المعنى ، ومثَّل له ، فقال :

" وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين ؛ فلإشباع المعنى والاتساع في الألفاظ. وذلك كقول القائل : آمرك بالوفاء ، وأنهاك عن الغدر . والأمر بالوفاء هو النهي عن الغدر. و:آمركم بالوصل ، وأنهاكم عن التقاطع ، والأمر بالتواصل هو النهي عن التقاطع "[6].

وتكرار المعنى الواحد بطرق عديدة ليس بالأمر السهل ، وهو يعتمد على مهارة الأديب وبراعته في تصوير المعنى وطريقة عرضه له ، وقد كان هذا النوع من التكرار منهجاً سلكه النبي ﷺ في أحاديثه لدفع السأم والملل عند المتلقي .

ويكون التكرار ناجحاً ومثيراً إذا طرق النفوس من أبوب ملونة ، وقد يبعث السأم والضيق إذا فقد التلوين في العرض ، والإبداع في التصوير، مما يؤدي إلى انصراف الناس عن فحواه ، والنبي

φ كان حريصاً على أن تصل دعوته إلى كافة الناس بحسب قدراتهم الاستيعابية . فكان يكرر المغزى الواحد في صور مختلفة من القول، تتغاير ألفاظها ومعانيها، ولكن تهدف إلى شيء واحد بأسلوب مشوّق ومتنوع[6] .

وخير مثال لتنوع المعنى دعوة النبي φ لخلوص النيات واتجاه الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى ، فالله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم منابع العمل الإنساني وبواعثه ، أهو خالص له سبحانه وتعالى أم وراءه أغراض شخصية دنيوية حقيرة . هذا المعنى الكبير كان لا بد أن يتكرر ويتردد حتى يرسخ في الأذهان ، فكرره النبي φ بعدة طرق على النحو التالي :

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله φ قال : (الأعمال بالنية ، ولكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[6].

لقد كرر النبي φ هذا القول الهادف مرة أخرى ، لما فيه من أهمية كبيرة في معرفة وتحديد النيات القلبية المرتبطة بالأعمال وضرورة توجيهها على ما عُزِم عليه وعدم خلطها بأمور أخرى ، فكان لا بد أن يواصل في الإلحاح ليتأكد هذا المعنى ولا يُنسى، ولما كانت إعادته بلفظه ومعناه ربما تدخل السأم والملل عند السامعين فكان لا بد من أن يعرضه بطريقة أخرى وبصورة مختلفة عن الأولى[6].

وجاء تكرار معنى الحديث بهذه الطريقة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله φ يقول : (إنَّ أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه ، رجلٌ استُشهِد فأُتِيَ به فعرَّفه نعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهِدت ، قال: كذبت ، ولكنَّك قاتلت لأن يُقال جريء ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار ، ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتِيَ به فعرَّفه نعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن . قال: كذبت ولكنَّك تعلَّمت العلم ليُقال عالِمٌ ، وقرأت القرآن ليُقال هو قارئٌ ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار . ورجلٌ وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأُتِيَ به فعرَّفه نعَمه فعرفها. قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنفَق فيها إلاَّ أنفقت فيها لك . قال: كذبت ، ولكنَّك فعلت ليُقال هو جوادٌ ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحِب على وجهه ، ثم أُلقِي في النار)[6].

كان حديث الأعمال بالنية قاعدة عامة ضُرِب عليها المثل بدافع الهجرة من مكة إلى المدينة ، أما حديث القيامة فعدة أمثلة تصويرية لإيضاح البصائر المدخولة والنيات المريضة إذا كشف الله عنها الغطاء ، فإذا بدوافعها ليست ابتغاء مرضاته ، وإنما هي رياء زائف، وإن خُفي عن الناس فإن الله يعلمه . والمغزى في الحديثين واضح ؛ وهو تكرار لمعنى خُلُقي يلح الرسول φ

عليه فكان تكراره لهذا المعنى تكرار الحصيف الفصيح ، الذي يملك من الصور والأخيلة ما يقدم به الطريف الجديد.

وقد كان في حديث القيامة الكثير من الأعمال الخيرة التي تمكّن صاحبها من دخول الجنة، إذا كانت خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، وصدرت من نفس مخلصة ذات إيمان قوي . وبما أن أصحاب هذه الأعمال الخيرة لم يكونوا صادقين في نواياهم مع الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن أعمالهم خالصة له، وإنما داخلها المن والرياء ، فسدت ، ولم تُقبل من الله تعالى لفساد النية[6] .

وقد كرر الرسول ρ هذا المعنى بصورة ثالثة مختلفة عن طريق تصوير المعنيين السابقين في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ρ قال :

(قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد، على زانية . لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته . فوضعها في يدي غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غني ، فقال : اللهم لك الحمد ، على سارق ، وعلى زانية ، وعلى غني ، فأتي : فقيل له: أما صدقتك على سارق : فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية: فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني : فلعله يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله)[6].

في هذا الحديث تصوير رائع لعقبى النية الصالحة إذا خلصت لله كما كان حديث القيامة تصويراً بليغاً لعقبى النية الفاسدة إذا لوثت بأغراض الحياة ، فهذه الأحاديث وغيرها كثير ، تعتبر مثالاً للتكرار الرائع الذي لا يصدر إلا من شخص بلغ قمة البلاغة[6] .

أغراض التكرار :

وردت أغراض كثيرة للتكرار، في القرآن الكريم ، والشعر العربي ، والحديث النبوي الشريف . فمن أغراض التكرار في القرآن الكريم ما يلي :

1- تأكيد الإنذار :

وكقوله تعالى: (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ)[6] .

وفي (ثُمَّ) دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ وأشدُّ.

2-زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ؛ ليكمل تلقّي الكلام بالقبول ، كما في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ)[6] .

3-وقد يكرر اللفظ لطول في الكلام [لئلا يجيئ مبتوراً]، كما في قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)[6] وقوله تعالى أيضاً: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)[6] .

وقد يكون التكرار لتعدُّد المتعلَّق ، كما في قوله تعالى: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾[6] .
لأنه تعالى ذكر قصصاً مختلفة ، واتبع كل قصة بهذا القول ، فصار كأنه عقب كل قصة : " ويل يومئذ للمكذبين بهذه القصة "[6].

أما التكرار في الشعر ، فقد ربطه ابن رشيق* بالغايات والبواعث النفسية التي تثير أحاسيس القائل، وتسوقه نحو استعمال هذا الأسلوب، فيقول:

" ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوُّق والاستعذاب، إذا كان في تغزّل أو نسيب ، أو على سبيل التنويه به والإشادة إليه بذكر ، أو على سبيل التقرير والتوبيخ ، أو على سبيل التعظيم للمحكيّ عنه ، أو على جهة الوعيد والتهديد ، أو على وجه التّوجُّع إن كان رثاء وتأبيناً ، أو على سبيل الاستغاثة ، ويقع التكرار أيضاً في الهجاء على سبيل الشهرة، وشدة التوضيع بالمهجُوّ ، أو على سبيل الازدراء والتهكُّم والتنقيص"[6] .

أما النبي φ فقد استخدم التكرار في الحديث النبوي الشريف لدواع كثيرة منها: التحذير من عاقبة معينة أو سلوك معين ، أو الترغيب في عمل من الأعمال التي يحبها الله، أو لتأكيد أمر من أمور الدين .

2) الأمثال في الحديث النبوي :

المَثَلُ لُغَةً :

مِثْل : كلمةُ تَسْوِيَة . يقال : هذا مِثْله ومَثَله .

والمِثْلُ : الشِّبْه ، يقال: مِثْل ومَثَل .

الشيء الذي يُضرب لشيء مثلاً فيُجْعَل مِثْلَه . والمَثَلُ : ما يُضرب به من الأمثال . ومَثَلُ الشيء : صفته .

ويُقال تَمثَّل فلانٌ : ضَرَبَ مثلاً . تَمثَّل بالشيء : ضَرَبَ به مثلاً .

المثل : ما جُعِل مثالاً أي مقداراً لغيره يُحْذى عليه ، والجمعُ المُثُل والمَثَلة[6].

المَثَلُ اصطلاحاً :

هو "القول السائر المُمَثَّل مضربِه بمورِدِه" [6].

والأمثال من الأساليب العربية القديمة التي عني بها العرب في كلامهم ، فهي تعتبر ضرباً من ضروب الإيضاح وتقريب المعنى إلى الأذهان . فمن أمثالهم :

" إنَّ البُغَاثَ بإرضِنا يَنْسِرُ " ، والبغاث ضربٌ من الطير ، ويستنسر أي يصير كالنسر في القوة عند الصيد ، بعد أن كان من ضعاف الطير. وهذا المثل يُضرب للضعيف عندما يصير قوياً وللذليل عندما يعزّ بعد الذل[6] .

و"كُلُّ ضَبٍّ عِنْدَهُ مِرْدَاتُهُ " ، المرداة هي الحجر الذي يُرْمى به ، والضب قليل الهداية، فلا يتخذ جُحره إلا عند حَجَر يكون علامة له ، فمن قَصَده فالحجر الذي يرمى الضب به يكون بالقرب منه، فمعنى المثل لا تأمن الحِدْثَانِ والغير ، فإن الآفات مُعَدَّة مع كل أحد. وهذا المثل يُضرب لمن يتعرض للهَلَكَة .

و" لِكُلِّ سَاقِطَةٍ لاقِطَةٌ " ، الساقطة هي الكلمة يسقط بها الإنسان ، أي لكل كلمة يخطئ فيها الإنسان مَنْ يتحفَّظها فيحملها عنه. ويضرب هذا المثل في التحفظ عند النطق[6] .

وقد حوى القرآن الكريم العديد من الأمثال التي كانت غاية في الدقة، والإتقان والإحكام، فأصابت غاياتها وبلَّغت مقاصدها ، صيغت بأسلوب بلاغي رائع يخاطب العقل والوجدان .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[6] .

"هُوَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ عَبَدَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا تَنْفَعُهُ وَلا تَضُرُّهُ ، كَمَا أَنَّ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ لا يَرُدُّ الْقَرَّ وَلا يَكُنُّ مِنَ الْحَرِّ ، فَشَبَّهَ سُبْحَانَهُ الْآلِهَةَ الَّتِي لا تَنْفَعُ وَلا تَضُرُّ بِهِ . وَهَانَ بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) أي أضعف البيوت لبيت العنكبوت"[6].

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[6].

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ) معنى الآية التشبيه والتمثيل ، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء أنزلناه (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) أي فاختلط الماء بالأرض فأخرجت ألواناً من النبات ، مما يأكل الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والأنعام(مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ) من التبن والحشيش والأوراق والقشور. (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أي حسنها وزينتها ، وازينت بالنبات والأزهار (وَازَّيَّنَتْ) أي على حصادها وجذاذها (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) أي أتاها أمرنا بهلاكها ليلاً أو نهاراً (أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا) أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها (كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) كأني لم تكن نعمة، (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أي نبينها لقوم يتفكرون في آيات الله[6].

إذاً التشبيه هنا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة ، حيث شبهت هيئة التمتع بالدنيا لأصحابها، بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد ، وعبر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركب .

ونحو قوله تعالى أيضاً: (فِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)[6]. معنى الآية :أي الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل[6] .

وهذا المثل يُضرب لمن يمشي بالفتنة بين الناس ولا يدري ماقد يترتب عليها من عواقب قد تؤدي إلى القتل.

كذلك اهتم النبي ρ في الحديث النبوي بضرب الأمثال ، لأنها من أجدى وسائل الهداية والإرشاد والتعليم ، والرسول ρ كان يقول لأصحابه فيما يرويه عن الله تعالى: (مِنْ بَيْنِ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)[6].

ومع أن الرسول ρ أفصح من نطق بالضاد إلا أنه لم يتوان في أن يتمثَّل بأمثال غيره من الأنبياء قبله، فقال ρ: (إِنَّ مِمَّا أدرك الناس من كلامِ النُّبُوَّةِ الأولى ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)[6].

كما أنَّه عليه الصلاةوالسلام تمثَّل أيضاً بأقوال العرب في جاهليتهم . ولم يقتصر تمثُّله على النثر دون الشعر، فقد تمثَّل ببيت الشاعر لبيد بن أبي ربيعة (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[6].

هذا بالإضافة إلى الأمثال التي ضربها بنفسه، ولازمته أكثر من ظله، فما من حالة إلا وله فيها عدة أمثال، ضربها في حِلِّه وترحاله، ووقوفه وجلوسه،وفي يقظته ونومه، وما بينهما، وفي ضيقه وفرجه، وسائر ما يمر على الناس من أحوال، ضربها عبارةً ، وإشارةً ،وصورةً [6].

أهمية الأمثال والغاية من ضربها :

تحدَّث العلماء عن أهمية الأمثال ، وما تحتله من مكانة رفيعة بين الأعمال الأدبية ، وجعلها بعضهم أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة ، وذكروا بأنها تشتمل على جوامع كلم العرب ونوادر حكمها وجواهر بلاغتها[6] .

أما الغاية في إيرادها فقد ذكرها الزمخشري* في كتابه الكشاف قائلاً:

" ولضرب العرب الأمثال ... شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبيّ ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الأنبياء والحكماء من قبله". قال الله تعالى: (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ)[6] .

فالأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل ؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة من الفهم ، كما أنها تكشف عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر .

وينبّه الزمخشري إلى ضرورة مطابقة المُتَمَثَّل له بالمُمَثَّل به فيقول :

"...إن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، وإدناء المتوهَّم من المشاهد، فإن كان المُتمثَّل له عظيماً كان المُتمثَّل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل، إذاً إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجرّه إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية"[6].

حكاية المثل ، أو عدم تغييره :

أكثر الذين تحدثوا عن الأمثال أشاروا إلى حكايتها ، وعدم تغييرها ، أياً كانت المعاني التي تضمنتها ، أو الصيغ التي صيغت بها . وآثروا إبقاء الأمثال على ما هي عليه ، حتى التي جاءت صياغتها خلافاً لقواعدهم وأقيستهم النحوية، بل أجازوا في الأمثال ما لم يجيزوه في غيرها ، ونبهوا إلى عدم الاحتاج بها ، لعدم اطراد القياس فيها[6] . وذلك نحو قولهم :"الصيف ضيّعت اللبن" فالتاء من (ضيعت) مكسورة في كل حال ، إذا خوطب به المذكر، والمؤنث ، والاثنان والجمع ؛ لأن المثل في الأصل خوطبت به امرأة كانت قد تزوجت شيخاً كبيراً ، فَفَارَكته فطلقها ، ثم تزوجها فتى جميل الوجه ، وأجْدَبَتْ فبعثت إلى زوجها الأول تطلب منه حلوبة ، فقال لها (في الصيف ضيعت اللبن) هذا المثل يُضرب لمن يطلب شيئاً قد فوّته على نفسه[6].

وربما كان السبب في عدم تغيير الأمثال إنما يرجع إلى ما تتميز به من مكانة في نفوسهم، فعبارة المثل عندهم أحسن عبارة يمكن أن تتضمن ما تضمنه من معنى مصيب ، ولهذا تراضاها العامة والخاصة ، وفاهوا بها في السراء والضراء . فلا غرابة في أن يحرصوا عليها ويحتفظوا بها على ما هي عليه لفظاً ومعنى[6] .

والأمثال النبوية تنقسم إلى قسمين :

الأول : ما هو مثلٌ بالمعنى المعروف أي القول السائر المشتهر على الألسنة . (حفظ عن النبي ﷺ حتى صار مثلاً).

الثاني : هو الذي من نوع التمثيل[6].

أولاً : ما حُفظ عن رسول الله ﷺ فصار مثلاً ، نحو الأحاديث التالية:

1/ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الحرب خُدْعَةٌ)[6].

الحديث فيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار، وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه . فالمماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم .[6]

وذلك لأن النصر في الحرب يتطلب التدبير والتخطيط المحكم ومعرفة نقاط الضعف لدى الجانب الآخر (العدو) فليس بالكثرة ولا القوة ولا العتاد تُكْسَب الحرب ، ولكن لا بد من العقل المدبر الذي يستعمل الحيلة والدهاء حتى يتحقق النصر .

2/عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي φ قال: (لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحرٍ واحدٍ ، مرتين)[6].

أي لا يخدعن المؤمن من جهة واحدة مرتين ، فإنه بالأولى يعتبر ، ولا يؤتين من ناحية الغفلة فيقع في مكروه أو شر ، وهو لا يشعر به ، ولكن يكون فطناً حذراً . وهذا التأويل يصلح أن يكون لأمر الدين والدنيا معاً [6].

3/ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله φ قال :(المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ، والمؤمنُ أخو المؤمن يَكُفُّ عليه ضَيْعَتَه ، ويَحُوطُه من ورائِه) [6] .

فالمثل في قوله : (المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ) وفي روايات أخرى(المؤمنُ مرآةُ أخيه) حيث مثَّل المؤمن بالمرآة ، ولكنه مرآة أخيه المؤمن ، إذ يتعهده بالنصيحة ويريه حسناته وهناته ، لأن بعض الناس لا يرون عيوبهم . فشبه هذا الناصح المخلص بالمرآة التي تُري الناظر إليها ما لا يمكن أن يراه بدونها ، تريه صورته كما هي دون غش أو خداع [6] .

وبما أن المرآة تعكس العيوب بصمت، فيجب على المسلم أن يكون كهذه المرآة في أن تكون نصيحته لأخيه دون فضيحة، أو تشهير به . والحديث على قلة كلماته إلا أنه عظيم المعاني، كثير الدلالات، ينطوي على معانٍ تربوية هامة يجب الأخذ بها.

4/ (كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكُم مسؤولٌ عن رَعِيَّتِه)[6] .

تناول الرسول φ في هذا الحديث المسؤولية الجماعية للأفراد ، فأوضح فيه أنه ليس لأحد من أفراد المجتمع أن يتخلى عن هذه المسؤولية ، أو يتنصل منها، أو يتنكر لها ، فالمجتمعات لا تقوم ولا تستقيم أمورها باتكال أفرادها بعضهم على بعض ، وتهاون كل منهم في مسؤوليته.وإنما تقوم بأداء كل منهم واجبه، وحرصه على مسؤوليته ، وتفانيه فيها. فالذي يرعاها حق رعايتها يُثاب على ذلك، كما أن الذي يتنصل منها ويقصر فيها يُعاقب على ذلك[6] .

ثم ذكر الرسول φ في تتمة الحديث عدداً من المسؤوليات فقال عليه الصلاة والسلام: (الإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِه ، والرَّجُلُ راعٍ في أهلِه وهو مسؤولٌ عن رعيَّتِه ، والمرأةُ راعِيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن رعيَّتِها ، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِه ومسؤولٌ عن رعيَّتِه. قال: وحَسِبْتُ أن قد قال : والرَّجُلُ في مالِ أبِيه ومسؤولٌ عن رعيَّتِه وكُلُّكُم راعٍ ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِه)[6] .

هذه نماذج أساسية للمسؤوليات في الحياة ، ذكرها النبي φ ، وعلى المرء أن يقيس عليها كافة الأشياء التي تدخل في إطار تبعته ، فالابناء مسؤولون تجاه أبويهما والأسرة ، ورب العمل

مسؤول عن العاملين الذين يعملون تحت إدارته ، والمعلم مسؤول تجاه تلاميذه ...إلخ ، فهذه سلسلة طويلة من المسؤوليات ، لا تنتهي إلى أن تقوم الساعة .

ثانياً : الأمثال التي من نوع التمثيل . نحو الأحاديث التالية:

1/ حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله φ قال:(مَثَلِي وَمَثَلُ الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! قال فأنا اللبنة . وأنا خاتم النبيين)[6].

هذا مثل نبوته φ وأنه خاتم الأنبياء، وبه تتم حجة الله عز وجل على خلقه . ومثَّل ذلك بالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً وهو ناقص الكمال بنقصان بعضه ، فأكمل الله به دينه وختم به وحيه[6].

2/عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول:مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما[6]، فأما المنفق : فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره. وأما البخيل : فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع)[6].

(هذا مثل ضربه النبي φ للبخيل والمتصدق ، فشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعاً يستتر به من سلاح عدوه ، فصبها على رأسه ليلبسها، والدروع أول ما تقع على الصدر والثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كمها ، فجعل المنفق كمن لبس درعاً سابغة ، فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه ، وهو معنى قوله (حتى تعفو أثره) أي تستر جميع بدنه. وجعل البخيل كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه ، كلما أراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته ، وهو معنى قوله (قلصت) أي تضامت واجتمعت ، والمراد أن الجواد إذا هَمَّ بالصدقة أنفسح لها صدره ، وطابت نفسه فتوسع في الإنفاق ، والبخيل إذا حدَّث نفسه بالصدقة شحَّت نفسه فضاق صدره وانقبضت يداه. وقيل هو تمثيل لنماء المال بالصدقة والبخل بضده، وقيل تمثيل لكثرة الجود والبخل وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء وتعوَّد ذلك وإذا أمسك صار ذلك عادة[6]) [6].

3/عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله φ يقول:(إنَّما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فاجتاحهم وأهلكهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق)[6].

4/ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله φ يقول:(إنَّما مثلي ومثل الناس كمثل رجلٍ استوقد ناراً فجعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحمون فيها)[6].

قوله φ (وأنا آخذ بحجزكم عن النار)، أي : أحذركموها ، وأصدكم عنها ، وأرغبكم في الجنة ونعيمها ، وأنتم في غفلة ساهون لا تشعرون ، كما يقتحم الفراش النار وهو لا يشعر، لميلكم إلى الدنيا وزهرتها وإثاركم لها على ثواب الله تعالى وما عنده الذي هو خير وأبقى . فهذه موعظة لبعض من أجابوا الدعوة ، ويحتمل أن يكون وعيداً لمشركي قريش[6] .

شبَّه النبي الكريم φ تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار جهنم واصرارهم على ذلك رغم محاولته φ لصدهم ومنعهم عنها - بنهيهم عن الوقوع في الحرام - بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وعدم تمييزه ، فكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله. فكان المثل هنا عن طريق تشبيه صور بصورة (تشبيه تمثيل) . وقد أحسن النبي φ في تصوير ومطابقة الحال في الصورتين (صورة الفراش والمخالفين) .

ومما عُرِض من نماذج للأمثال التي ضربها النبي φ نلاحظ أن هناك تَنوُّعاً واضحاً في ضربه للمثل وطريقة عرضه له، فكما استخدم النمط العادي للمثل المعروف في عبارات وجيزة مختصرة ، كذلك استخدم الأمثال التي من نوع التمثيل ، وفيها تظهر براعته φ في اختياره لصورة المشبه به ، ومطابقتها مع حال أو هيئة المشبه ، وعرضها في أبهى صور تشبيه التمثيل.

هذا بالإضافة للغرض التربوي للمثل ، باعتباره وسيلة تربوية ناجحة في الإقناع والتأثير. وقد استخدمه النبي φ في كل ما يحث المسلم على فعل الخير والفضيلة ويمنعه، من الوقوع في المعاصي التي تهلكه وترمي به في نار جهنم ، واستخدمه كذلك في توضيح المعاني المعقولة وا ٍبرازها في صورة محسوسة ليقربها إلى الأذهان .

3) الحوار في الحديث النبوي :

أسلوب الحوار في الحديث النبوي من الأساليب التي تجذب انتباه السامع وتدفعه إلى الإقبال على متابعة النص بذهن أكثر تفتحاً وتجاوباً ، كما أن الحوار يضفي الحيوية على النص ويدفع الملل والشرود ، ويساعد على التركيز الجيد .

ويحتوي الحوار الجيد على صفتين أساسيتين هما التركيز ، والإيجاز ، إذ أن الطول في العبارة الحوارية يميت الحيوية .

والحوار معروف في حياة الناس العادية ، فالمتحدِّث الناجح لا بد أن يشرك الحاضرين في الحوار ؛ حتى لا يكون هو المتحدَّث الوحيد في الجلسة ، وكلما أدار حواره بطريقة ممتعة وشيقة ، كلما جذب انتباه الناس إلى كلامه ، وكان حديثه مقبولاً ، ومسموعاً ، وهذا ملاحظ في المدارس ، فالأستاذ الناجح هو الذي يتبع طرق الحوار مع تلاميذه ، لأن المحاورة والمناقشة تساعد الطلاب على تلقي المادة بصورة جيدة ، وذهن صاحٍ ، فيسهل استيعابها ،وقد كان الرسول φ يتخذ أسلوب الحوار كأداة تعليمية يلجأ إليها ليحرك أذهان صحابته في الموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه، حتى إذا انتهى أحدهم إلى نتيجة بسبب هذه الإثار ة الذهنية تطلع إلى الرسول φ يصغي لحديثه ينظر هل وُفِّق إلى السداد؟.وتشترك في هذا التحفز كل قواه وطاقاته وأعصابه، وعندئذ يتمكن الجواب من نفسه أيما تمكن ، وتتجلى روعته بأجلى صورة[6].

وقد كان للرسول φ عدة طرق في إثارة الحوار منها :

1- أن يأتي الرسول φ بجملة تبدو غريبة لأول وهلة ، وقد تكون معارضة لما تعلمه الصحابة من أحكام الدين ، فيستثير أسئلتهم .

مثال ذلك :

عن أبي ذر رضي الله عنه ، (أنَّ ناساً من أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالوا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ذهبَ أهلُ الدُّثورِ بالأجورِ ، يُصلُّون كما نصلي ، ويصومون كما نصومُ ، ويتصدقون بفضولِ أموالهم . قال: " أو ليس قد جعل اللهُ لكم ما تَصدَّقون ؟ إنَّ بكل تسبيحةٍ صدقةٌ ، وكل تكبيرةٍ صدقةٌ ، وكل تحميدةٍ صدقةٌ ، وكل تهليلةٍ صدقةٌ ، وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ ، ونهيٌ عن منكرٍ صدقةٌ ، وفي بضعِ أحدكم صدقةٌ " . قالوا : يا رسولَ اللهِ ! أيأتي أحدنا شهوتَه ويكون لهُ فيها أجرٌ ؟ قال : " أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان لهُ أجرٌ ا")[6] .

ففي قوله " وفي بضعِ أحدكم صدقةٌ " غرابة تثير حواراً ، وهذا ما حدث ، فقد بعثت هذه العبارة الحيرة في أذهان السامعين ، إذ أن من المعروف أن الأجر يكون دائماً في الأمور والواجبات التي يجد المسلم في أدائها شيئاً من المشقة ، أما الأمور المختصة بغريزة الإنسان كيف يكون لفاعلها الأجر؟ فبيَّن لهم الرسول الكريم عليه الصلاة و السلام أن تصريف الشهوات في السبيل الذي شرعه الله وأحله أمر يستلزم الثواب ، كما يستلزم تصريفها في الحرام الذنب والعقاب ، فكل من يحمل نفسه على التزام أحكام الشرع ، ولا يتعدى حدود الله مثاب مأجور. لقد خلقت هذه الجملة البسيطة جواً من الحوار الممتع المركز ، حرك السامعين وتركهم أكثر تجاوباً [6] .

2- ومن هذه الطرق أيضاً أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب . وذلك كأن يذكر لهم أمراً عظيماً ، ومقصداً هاماً ، وهدفاً مرجواً ، يسعى إليه كل مسلم ، ثم بعد ذلك يورد السؤال : " ألا أدلكم عليه ؟ ومن الطبيعي أن يكون الجواب من الصحابة "بلى" .

مثال لذلك : عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله φ قال :

(ألا أدلُكم على ما يمحو اللهُ بهِ الخطايا ويرفعُ بهِ الدرجاتِ ؟ قالوا : بلى . يا رسولَ اللهِ ! قال إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ ، وكثرةُ الخطا إلى المساجِدِ وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ فذلكمُ الرباطُ)[6].

لا شك أن معرفة الشيء أو العمل الذي يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات مطمع لكل مسلم، وقد ظل السامعون يترقبون الدلالة عليه، عازمون على فعله بعزيمة قوية ونفس راضية [6].

3- ومن هذه الطرق أيضاً ، أن يوجه الرسول φ إلى الصحابة سؤالاً ، ويستمع إلى أجوبتهم، ثم يناقشهم في هذه الأجوبة ، ويبين لهم الصواب ، وقد يعتذرون عن الإجابة ويقولون :" الله ورسوله أعلم" ، فيدلي النبي φ بالجواب .

ومثال ذلك : عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول اللهﷺ قال :(أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال: إنَّ المفلس من أمَّتي ، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيامٍ وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه . ثمَّ طرح في النَّار) [6].

لولا إثارة هذا الحوار الشيق عن تعريف المفلس ، لمرَّ المعنى على آذان السامعين مروراً موقتاً ، سرعان ما ينسون مضمونه ، ولكن بعد إثارة الحوار تبيَّن لهم أن المفلس غير ما كانوا يعرفون ، فالحوار عزز المعنى في إذهان السامعين، فلن ينسوه أبداً [6] .

4-وهناك نوع آخر من الحوار ليس مما تقدم ، وإنما هو حوار عادي غير متعمَّد، ولكن فرضته الوقائع ، ومن ذلك أن يطرح أحد الصحابة عدة أسئلة على الرسول φ ، ويتولى الرسول φ الإجابة عليها .

وذلك نحو :

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله قال أيُّ الرِّقاب أفضل ؟ قال أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً قال فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً أو تصنع لأخرق قال يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل قال تكف شرَّك عن النَّاس ، فإنَّها صدقةٌ منك على نفسك) [6].

وأمثلة هذا النوع كثيرة في الحديث النبوي ، لأن الصحابة كانوا يحرصون على معرفة أحكام دينهم كل الحرص [6].

كانت أسئلة الصحابي للرسول φ عن الأمور التي ذُكرت في الحديث هي التي أثارت هذا الحوار الجميل ، الذي أتى عفو الخاطر وبدون قصد أو تعمُّد.

5- وهناك أحاديث أخرى ، صيغت على شكل قصص قصيرة ، قصها الرسول φ على المسلمين للعظة والعبرة والدعوة ، لا تخلو من الحوار الرائع المعبر ، إذ ان الحوار دعامة القصة ، وركن أساسي فيها[6] .

وهناك طرق أداء أخرى استخدمها النبي φ في الحديث النبوي الشريف، كاستخدام القصة، والإشارة ، والحركة ، والرسم ، واستخدام الحصى ، فكما أنها تعتبر من سائل التصوير في الحديث النبوي الشريف، فهي أيضاً يمكن أن تكون ضمن الوسائل التعليمية التقريرية في الحديث النبوي الشريف ؛ لأنها تهدف إلى شرح المعنى وتوضيحه .

فالقصة استخدمت قديماً كوسيلة تأثيرية ناجحة في الدعوة إلى الدين، ولهذا لا يستطيع أن يستغنى عنها داعية ولا مصلح . إذ أن النفس البشرية تنفر من الأسلوب الوعظي التقريري ،

خاصة إذا أخفق الواعظ أو المصلح في طريقة عرضه للموضوع ، فأسرف في الوعظ وظهرت في أسلوبه النبرة الآمرة ، وتنحى عن جانب اللطف . ومن أهم مزايا القصة أنها تسكت عن ذكر المغزي وتترك للسامع أن يستخرجه بنفسه ، وهو بذلك يكون أكثر تأثراً لأنه يتبنى المغزى عن اقتناع ، وقد يحس بأنه صاحب الفكرة ولم يفرضها أحد عليه[6] .

لهذا تعد القصة من الأساليب الناجحة المحببة في إيصال أي فكرة أو دعوة يراد نشرها وإقناع الناس بها.

أما الإشارات ، والحركات ، والرسم ، واستخدام الحصى ، فهي لا تقل أهمية عن غيرها من وسائل الإيضاح ، إذ لها دلالات عميقة في إيضاح المعاني وترسيخها في النفس، فالرسول ρ اهتم بوسائل الإيضاح في تعليم أمته ، ومحاولته شغل الحاسة مع العقل في لباقة لجذب انتباه المتعلمين ، وقد يكون الفعل قبل العبارة لافتاً ومشوقاً ، فإذا تبعه البيان ازداد الغرض تقرراً فلا يسهل في العادة نسيانه[6].

كل ما ذُكِر ، يُعد بعضاً من طرق الأداء، والوسائل التقريرية ، والتوضيحية، التي استخدمها النبي ρ براعة المُعلِّم الحريص على تقديم كل ما يساعد على فهم معانيه واستيعابها بشتى الصور والأساليب المشوقة والممتعة ، مستعيناً بعبقريته الفذة وقدراته الهائلة في الابتكار والتنوع في الأداء وطريقة العرض ، دفعاً للملل والسأم، فتتقبلها النفوس بكل رضا وانشراح .